فـــن الغـــــزل

عند

هاشـــم الرفـــاعي

دراسة تحليلية فنية

الدكتور

صـــــلاح محمـــــود ســـــيد منـــــاع

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بأسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، له الحمد على ما أعطى وأغدق ، وأسبغ وأفاء من نعم لا تحصى ، وخيرات لا تنكر ، والصلاة والسلام على خير مبعوث رحمة للعالمين ، محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " أرسله الله بكتاب مبين ، لهداية البشرية إلى نور اليقين ، فصلي الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً " ٠

أما بعد ٠٠،

فقد كان الشعراء في مصر على وعي تام بحقيقة ارتباط حركة المرأة بحركة المجتمع من ناحية ، ومن ناحية أخرى دلالة المرأة رمزاً ثرياً موحياً ٠

فالمرأة من قديم الزمان شغلت بال الشعراء فوصفوها ، وتغزلوا فيها ، وتكلموا عنها وعن مفاتنها من العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ، وسيظل الأمر كذلك ٠ وهاشم الرفاعي في شعره حين تصدى للمرأة ، إنما يفعل ما فعله غيره ممن وصفوا محاسنها ومفاتنها الحسية والمعنوية ٠

فموضوع هذه الدراسة " فن الغزل عند هاشم الرفاعي ، وهذا الشاعر هو أحد شعراء مصر في العصر الحديث ويستحق شعره الدراسة ، للكشف عن طبيعة مكانه في خريطة شعرنا الحديث ، وخاصة حين اطلعت على نشيد بلادي أيقنت أن الشاعر ضليع فأحببت دراسته ٠

" ويبدو أن الناس لا يقتسمون حظوظهم في الحياة بكفاءتهم وجدارتهم ، وكم رفعت هذه الحياة أقدار رجال ليسوا أهلاً لما نالوا من مكانة ، وخفضت هامات كان أهلها جديرين بالتقدير ، والشعراء منهم من نال حظه في دنيا الأدب مما حظي به من دروس وعناية ألقى الضوء على نتاجهم ، ومنه من لفه النسيان في حجبه الكثيفة ، وسحبه المتراكمة ، فلم

يظفر من الباحثين بما ظفر به غيره ممن لا يقل عنهم شأناً " [١] ٠

وأهم الدوافع التي جعلتني أكتب في هذا الموضوع هو أن هاشم الرفاعي لم ينل شعره الغزلي عناية الدارسين وأوشك شعره الغزلي على الدخول في متاهات النسيان فأردت أن أقوم بدراسة مستقلة عن شعره الغزلي لتكشف الغطاء وتجلي الحقيقة عن طبيعة أسلوبه ٠

وكذلك لا توجد دراسة كاملة تستوعب شعر هاشم الرفاعي الغزلي، ولهذا أخذت على نفسي النهوض بهذه الدراسة سائلاً الله عز وجل أن يمنحني التوفيق والسداد ٠

وتقع هذه الدراسة في تمهيد ومبحثين وخاتمة :

التمهيد : تحدثت فيه عن لمحة من حياة الشاعر هاشم الرفاعي والروافد التي غذت شعره ٠

المبحث الأول : الدراسة الموضوعية ٠

وتحدثت فيه عن شعر هاشم الرفاعي وخاصة فن الغزل ، وكذلك عن الموضوعات الغزلية التي نظم فيها ٠

المبحث الثاني : الدراسة الفنية ٠

تحدثت فيه عن الوسائط الفنية التي استخدمها هاشم الرفاعي من تناص ، وتكرار ، وإيحاءات لفظية ، والصورة الشعرية ، وأهم مصادرها ، وكذلك عن الموسيقا الداخلية والخارجية ٠

الخاتمة : تحدثت فيها عن أهم النتائج والحقائق التي توصلت إليها ٠

وأدعو الله عز وجل أن يوفقني في تناول هذا الموضوع

وعلى الله قصد السبيل ومنه التوفيق

---

(١) زكي مبارك شاعراً ، د / العربي حسن درويش ، الهيئة العامة للكتاب ط / ١٩٨٦ ، ص ٠٧

تمهيد

لمحة من حياة الشاعر

لا تكتمل الحياة إلا بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، فهما عنصراً الحياة ، خلقهما الله من أجل إعمار الكون ، وخلق فيهما الغريزة ٠

ومن هنا فإن الغزل نشأ مع نشأة الشعر ، فبدأ الشعراء قصائدهم بالبكاء على الأطلال ، حيث شهد الشعر العربي لوعة الحب بين الشعراء ومعشوقاتهم مثل : " عنترة وعبلة " ، " وكثير عزة " ، " وابن زيدون وولادة " ، " وقيس وليلى " ، فغزل كل شاعر في محبوبته خيوطه الشعرية التي تفيض رقة وعذوبة ، وعبر أمشاج الشعر يسطع نجم الشاعر " هاشم الرفاعي " حيث استطاع الشاعر من خلال كلماته الشعرية التي تفيض بالعذوبة إن يصل إلى عقول وقلوب البشر ، فأصبح شعره يردد بين الناس في العصر الحديث ٠

والمدخل الصحيح لارتياد عالم " هاشم الرفاعي " لابد أن يبدأ من سيرة حياته لاسيما وأنه استطاع أن يحفر اسمه بحروف من ذهب على سجل التاريخ الأدبي للشعر ٠

هاشم الرفاعي سيره وحياته [١] :

ولد السيد بن جامع بن هاشم مصطفى الرفاعي ــ الذي ينتهي نسبه إلى الإمام أبي العباس أحمد الرفاعي في قرية " أنشاص الرمل " بمحافظة الشرقية ، ووالده هو الشيخ " جامع الرفاعي " أحد العلماء المعروفين في عصره ، وقد اشتهر الشاعر باسم جده " هاشم الرفاعي ،

---

(١) راجع ترجمته في كتاب " ديوان هاشم الرفاعي " ــ المجموعة الكاملة تجمع وتحقيق ــ محمد حسن بريغش ، ومعجم البابطين لشعراء العربية في القرن التاسع عشر ــ كتاب شعراء الدعوة الإسلامية ج ٣ لمؤلفين أحمد عبد اللطيف الجدع ، وحسن أدهم جرار ٠

تيمناً به ، فقد كان أحد أعلام العلماء الفضلاء .

نشأ هاشم الرفاعي في بيت يُعني بالعلم ويهتم بالثقافة والتفقه في الدين ، ويحرص على التربية الإسلامية .

حفظ هاشم الرفاعي القرآن الكريم في سن مبكرة في مكتب الشيخ محمد عثمان ، نشأ الشاعر في هذه الأسرة ، وتربى على يد والده ، الذي أثر عنه الحزم في التربية ، وكان يريد أن يربي الشاعر تربية خاصة ، ليكون رائد الطريقة من بعده ، ولكن الشاعر أبى ذلك ورغب أن يدرس في الأزهر ، فرفض أبوه تحقيق رغبته وحاول أن يثنيه عن رغبته تلك فأبى فعالجه باللين ثم بالضرب ، ولكن الشاعر زاد إصراراً وتمسكاً برغبته رغم صغره ، واشتدت الأزمة بينهما وحار الوالد في أمر ابنه العصي ولكن الطفل الذكي لجأ إلى طريقة أخرى فاتصل ببعض أقارب وأصدقاء أبيه ، وأقنعهم برغبته وطلب منهم إقناع والده بها ، وفعلوا ذلك ورضخ الوالد بهذه الرغبة أمام تدخل الأقارب والأصدقاء ، وهكذا ذهب إلى الأزهر والتحق بمعهد الزقازيق الديني الذي يتبع الأزهر سنة ١٩٤٧ ، وحصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية في عام ١٩٥١ م ، ثم أكمل دراسته الثانوية في هذا المعهد وحصل على الشهادة الثانوية في عام ١٩٥٦ ، ثم التحق بدار العلوم وتوفي قبل أن يتخرج سنة ١٩٥٩ .

وكان في مراحل دراسته كلها بارزاً بين زملائه ، كان يقول الشعر ولم يبلغ الثانية عشرة من عمره ، ويقود الطلبة في المظاهرات والاحتفالات ضد الاحتلال البريطاني ، والأوضاع الفاسدة السائدة في مصر ، ولقد أصيب برصاصة طائشة تركت أثراً في أعلى رأسه ، وفصل من معهد الزقازيق مرتين : الأولى : قبل قيام الثورة ، والثانية : بعدها لمدة سنتين من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٥٦ ، وكان فصله في المرة الثانية لقيادته للمظاهرات التي خرجت من معهد الزقازيق ضد رجال الثورة الذين ضربوا الاتجاه

الإسلامي وأقصوا محمد نجيب عن رئاسة الجمهورية ، وبعدها زار أنور السادات ــ رئيس مجلس الأمة آنذاك ــ أنشاص ــ مدينة في محافظة الشرقية بمصر ــ فألقى الشاعر قصيدة بين يديه وعرض عليه الأمر أيضاً، ثم استطاع أن يتصل بكمال الدين حسين وزير التربية ، وأعيد إلى المعهد مرة أخرى ، وهذه السنوات التي أبعد فيها عن المعهد جعلته يتأخر عن بعض زملائه ٠

ثم التحق بكلية دار العلوم ، وتولى مسئولية النشاط الأدبي في الكلية ، ولكنه لم يتم الدراسة بها ، حيث توفي مقتولاً قبل التخرج ، وكان ذلك يوم الأربعاء الموافق الأول من شهر يوليو ١٩٥٩ م ، وهو في سن الرابعة والعشرين ٠

شعـــره :

" الشعر هو التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه ، فهو رؤية نفسية تعبر عن عوالج النفس البشرية للشاعر [١] ، لأن الإبداع الأدبي يولد من رحم المجتمع الذي يعيش فيه المبدع ، ومن هذا المنطلق عبر شاعرنا عن نبض عصره وانعكاس لقضاياه السياسية والاجتماعية التي يعيشها ، وعن آمال وآلام الجماعة ٠

وهاشم الرفاعي شاعر انطلق شعره من ذات عقيدة وإيمان ، وتحركت عينه في كل اتجاه تلمس المشكلات في عصره ويقدم لها العلاج ، وهذه الحركة الشعرية تؤكد أن هاشم الرفاعي جاء من أجل المجتمع والعصر ، والمثل " والأخلاق والقيم " ، وبالرغم من حداثة سن هاشم الرفاعي ، وقصر حياته الشعرية التي لم تزد على عشر سنوات إلا أننا نجد نجد تنوعاً كبيراً في أغراضه الشعرية ، وإذا ما أمعنا النظر في شعر هاشم الرفاعي واقتربنا من شاعريته ودخلنا عالمه الشعري : نلمس أن

---

(١) أدب الرحالة ، للدكتور / محمود دياب محمود ، بدون ، ص ٣ ٠

شعره عادي في بداية حياته في المرحلة الدراسية ما قبل الجامعة ثم تطور هذا الشعر حتى وصل إلى شعر فخم في المرحلة الجامعية ، وبذلك مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة ما قبل الجامعة :

وهي أول جولة في عالمه الشعري حيث بدأ بالدندنة على قيثارة الشعر العربي ، بصورة عفوية ، حيث سلك طريق المحاكاة التي تعتبر نوعاً من المنافسة الغريزية ، ولم يصل الشاعر في تلك المرحلة إلى النضج والرقي " هذه أول جولة في عالم الشعر ، استلهمت أبياتها من الأحداث والمناسبات ، فإذا كان بها بعض الأخطاء ، فذلك راجع إلى أنني لم أصل بعد إلى مرتبة الرقي في الشعر ، والسمو عن الأخطاء ٠

وإنني إذ أجمع هذه الأبيات ٠٠ وأضرع إلى الله أن يجعلها مفتاح الغزير من البيان ، السليم القوي من الأشعار [١] ٠

وإذا اقتربنا من شاعريته، لاحظنا أن قصائده التي كتبت في تلك المرحلة المبكرة من عمره تتميز بموهبة شعرية تنساب في سهولة ويسر ، بل إنه يسعى إلى محاكاة كبار الشعراء ، وتظهر عليه ملامح التقليد في البدايات ، وهذا أمر طبيعي ، وهذا نستشعره حينما نقرأ له قصيدة يرثي بها والده :

أمن المصـــاب وعظمه تتوجع ∴ والعين منك ســـيولها لا ترفع
يا ليتهـــا تجدي إذاً لرأيتهـــا ∴ بحراً عجاجاً من عيـــون ينبـــع
ذهب الإمـــام فمـــا رأيت لرده ∴ سبلاً ، فهل تجدي الدموع وتنفع
أبتاه ، شعري لست أملك غيره ∴ ماذا عساي سوى الرثاء سأصنع
أبتاه قـــد ظلمـــوا فتاك فنبني ∴ ما ذنـــب باك قـــد جفتـــه الأدمع
ولئن تنمُّ العين عن حزن الفتى ∴ فالحزن أقسى في القلوب وأوجع

---

(١) الديوان ، ص ٢٥ ٠

وهذه القصيدة يحاكي فيها هاشم الرفاعي مالك بن الريب التي مطلعها :

أمن المنون وريبها تتوجع ∴ والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقوله في قصيدة أخرى :

إذ ما جـــن ليلكـــم اجتمعتـــم ∴ وقد بسط الهنـــا لكم سبيـــله
إلى أن تقطعوا في اللهو شطراً ∴ من الليل الذي أرخى سدوله

فهو يحاكي فيها امرأ القيس في قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ∴ عليّ بأنواع الهموم ليبتلى

والملاحظ أن الشاعر لم يحاك فقط بعض الشعراء القدامى إنما تأثر بالقراءات التراثية المتعددة حتى أنه استخدم بعض الكلمات الغريبة غير المستخدمة الآن ٠

وهذه المرحلة تضم وتشمل القصائد التي كتبها الشاعر منذ عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٣ [١]، وأغلبها نستشعر فيها ملامح التقليد ، وبالرغم من ذلك نستشعر بأننا أمام شاعر له شخصيته المتفردة في الأداء الفني ، حيث القصائد التي قيلت في تلك المرحلة رغم أنها لم تصل إلى الرقي في الشعر إلا أنها متمشية مع صحيح اللغة خالية من عيوب الوزن والقافية ، وهذا مؤداه أن موهبة هاشم الرفاعي في الشعر أصيلة ٠

المرحلة الثانية : وهي مرحلة النضج أو المرحلة الجامعية :

وهذه المرحلة تبدأ من سنة ١٩٥٦ م [٢] ، عند انتقاله من المعهد إلى كلية دار العلوم حيث وصل إلى درجة التميز ، واتسع فيها أفقه ، وصقلت تجربته ، وارتبط بقضايا المسلمين في ربوع الوطن الإسلامي ،

---

(١) أشار إلى تلك المرحلة محقق الديوان ص ٢٥ ، ٢٦ ٠

(٢) أشار إلى تلك المرحلة من خلال الديوان ، المجموعة الخامسة ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ٠

فأصبح من أصحاب القلم وأرباب البيان ، وكثرت فيها قصائده ، وظهر نبوغه ، فلم يكن مجرد شاعر تنبض أشعاره بحب الوطن وقضاياه ، بقدر ما كان شاباً عربياً ، أتت له اللغة ، وأصبحت طوع بنانه ، فملأ السمع والبصر ، وأصبح من فرسان الشعر ، وظهر في كثير من الاحتفالات والندوات مثل مهرجان دمشق عام ١٩٥٩ ، وهناك ألقى رائعته رسالة في ليلة التنفيذ " ، فأحدثت دوياً ونشرت في كبرى الجرائد السورية ٠

وفي هذه المرحلة تمرد على الأشكال التراثية ليولي وجهه شطر الأشكال الجديدة بعيداً عن واقعه حسبما يراه ، واتجه أيضاً إلى الألفاظ السهلة ، والأوزان الجديدة مع عدم الخروج عن العروض الخليلي بل ظهر في شعره الرباعيات ، والثنائيات القريبة من الموشح الأندلسي ٠

وعلى الرغم من حداثة سن هاشم الرفاعي ، وحياته الشعرية التي لم تزد على العشر سنوات إلا أنه انغمس في مشكلات البشر ، وانصهر في بوتقة همومهم يشاركهم أفراحهم ، ويشاطرهم أتراحهم وينفعل معهم ، ويذوب في بحور جراحهم ، فتألم لأنين الأطفال والأمهات والمتشردين في فلسطين ، وخروج الأمة العربية من أرض فلسطين خاسرة ، وهذا ليس غريباً على شاعر انغرست جذوره في طمي الشرقية ٠

والمتصفح لديوان هاشم الرفاعي يجد نفسه أمام موهبة شعرية متفردة ، معوانة على ألوان متنوعة من الشعر ما بين المديح ، والرثاء ، والشعر الحماسي ، والغزل والمناسبات وغيرها ٠

ويمكننا أن نتناول بعضاً من هذه الأغراض من خلال النماذج الشعرية من شعر هاشم الرفاعي ٠

وكانت بدايته مع الشعر الحماسي حيث كتب قصيدة في فلسطين يحمس فيها الشباب للجهاد فيقول :

أن الجهـــــاد فأقدم أيها البطــل
وامسك حســامك واطعن قلـــب صهيونا

جاءوا يريدون تقسيماً فقل لهــم
ــ والسيف يسطرهم ــ لن نقبل الهونـــا

ومن شعره الوطني قصيدته مصر الجريحة والتي يشير فيها إلى حركة الإخوان المسلمين ، وصور فيها مصر وهي تندب مجدها الضائع وعزتها المهدرة ، فيقول :

ما راعني في الليـــل إلا أن ∴ أرى شبحاً بأثواب الدجى يتلفع
يمشي الهويني شاكياً فكأنــه ∴ صب بساعات الرحيـــل يودع
فدنوت منـــه محـــاذراً فأذابه ∴ حسناء أنهكها الأنين المرصـــع
فهتفت ما بال الفتاة أرى لها ∴ قلباً يفيـــض أسىً وعيناً تدمع
من أنت يا فتاة؟ قالت يا فتى ∴ إني أنا مصـــــــر التي تتوجع
أبكي على مجدي وأندب عزتي ∴ هــذان فقدهمـــا مصاب مجزع

ومن شعر المناسبات قصيدته بعنوان " الذكرى العطرة " وقالها في مولد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول فيها :

حتى أضاءت بمولود لآمنة أرجـــــاء مكة وانجـــابت دياجيها
ومن تتبع تاريـــخ الهدى رأى فيه الجلالة في أسمى معـــانيها
ففي البطولة يلقي ما يمجدها وفي الرجولة يلقي ما يزكيهـــــا

ومن شعره الذي يتحسر ويصور أحاسيس الشباب ، قصيدته" شباب الإسلام " التي تعد من عيون الشعر العربي :

ملكنـــا هذه الدنيـــا قروناً وأخضعهـــا جـــــدود خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء فما نسي الزمـــان ولا نسينا

حملناها ســيوفاً لامعات غداة الروع تأبى أن تلبينـــــا
إذا خرجت مــن الأغماد يوماً رأيت الهول والفتح المبينا
وكنا حين يأخذنـــا ولي بطغيان ندوس له الجبينـــــا
تفيض قلوبنا بالهــدى بأساً فما نغضي عن الظلم الجفونا
وما فتئ الزمان يــدور حتى مضى بالمجد قوم آخرونــا
وأصبح لا يرى في الركب قومي وقد عاشوا أئمته سنينا
وآلمني وآلم كل حــر سؤال الدهر : أيــن المسلمونا ؟

وللحزن دوره الشديد في شعر هاشم الرفاعي ويتجلى ذلك في شعر الرثاء خاصة في قصيدته التي رثى فيها فقيد أنشاص على هاشم يقول فيها :

قف أيها الغادي ٠٠ عليك سلام ∴ بأولى المــكارم تذهــب الأيــام
إني رأيت غداة فقدك موكبـــا ∴ قد ســـار فيه مرارة وزحـــام
يمضي بأروع ماجد لا يرتجــى ∴ من بعــده للطيبات قيـــــام
رحنا نشيع منك بحراً للتقـــى ∴ في ضفتيه الجــود والإكـــرام
نمشي وراءك والقلوب من الأسى ∴ تدمـــي ومــلء نفوســنا آلام
حر الأسى بين الضلوع كأنـــه ∴ في القلب من هول المصاب ضرام
والعين تهمي والدموع ذوارف ∴ والنـــاس خلفــك شفها الإيلام
فلئن بكوك توجعاً فلفقدهـــم ∴ من كفكف العبرات وهي غمــام
ولئن حنوا هاماتهم فلطالمـــا ∴ خفضت لمثلك في الحيــاة الهام
لمن العزاء أسوقه والكل فـــي ∴ جنبيه للخطب الأليــم سهـــام
بكت المروءة بعد موتك ســيداً ∴ وهوى بفقدك للوفاء إمـــام
وطوى الردى علماً بنبل خصاله ∴ وفعاله ، تتفاخــر الأعـــلام

قالوا قضى العمر الطويل فقلت في .·. خير الورى طالت به الأعوام[١]

ومن أروع شعره القصيدة الرائعة المؤثرة المبكية والتي فازت بجائزة المجلس الأعلى للفنون والآداب في مصر ، ونالت الجائزة الأولى في مهرجان الشعر بدمشق عام ١٩٥٩ م ٠

وتعد هذه القصيدة نموذجاً رائعاً لما وصل إليه الشعر الإسلامي في عصر الصحوة من شفافية التصوير ، ودقة الأداء ، وقراءة عميقة للتاريخ، هذه القصيدة التي صور فيها محكوماً بالإعدام يخاطب أباه في آخر ليله من عمره قبل تنفيذ الإعدام والتي مطلعها :

أبتاه ماذا قد يخـط بناني والحـبل والجـلاد ينتظـراني
هذا الكتاب إليـك من زنزانة مقرورة صخـرية الجدران
لم تبق إلا ليلة أحيا بها وأحـس أن ظلامهـا أكفـاني
ستمر يا أبتـاه لسـت أشـك في هذا وتحمل بعدها جثماني
الليل من حولي هدوء قاتل والذكريـات تمـور في وجداني
ويهزني ألمي فأنشد راحتي في بضع آيـات مـن القرآن
والنفس بين جوانحي شفافة دب الخشوع بها فهز كيـاني

ومن شعره الاجتماعي الذي اتخذه الشاعر أداة اجتماعية يسعى بها لزلزلة واقعه قصيدته : " الفول أكلي ما حييت " حيث يقول فيها :

الفقـر يمـلأ بالمذلة كاسـي .·. إني سأشهر في الورى إفلاسي
لا الجيب يعمر بالنقود ، ولايدي .·. فيهـا فلوس زي كل النـاس
أصبحت باطي والنجوم ،ولا أرى .·. أحداً يخفـف كربتي ويـواسي
الفـول أكلـي ما حييت وإنني .·. متحرق شوقاً إلى القلقـاس

---

(١) الديوان ، ص ٢٣٢ ٠

قد كدت يا قومـــي أصيح منهقاً ∴ وتخلعت من أكله أضـــــراسي
البطن خال كالجيوب ــ وأشتهي ∴ ما في المسامط من لحوم الراس
وإذا مشيـــــت فإنني متهـــــالك ∴ وأكاد ألفـــظ جـــــائعاً أنفاسي
وأمر بالحـــــاتي فاهتف قائلاً : ∴ كم ذا يكابد مفلـــس ويقـــاسي

خلال ما سبق نستطيع أن نقول إن هاشم الرفاعي يعد واحداً من الأصوات الشعرية المتفردة على الصعيدين المصري والعربي، حيث استطاع أن يحفر اسمه بحروف من ذهب في سجل التاريخ الأدبي ٠

الروافد التي غذت شعره :

الشعر مغامرة لغوية وموهبة ربانية وملكة فطرية وتعبير عن شعور الإنسان [١] ٠

والشاعر لا يكتفي بتلك الملكة أو الموهبة ، ولكن لابد له أن ينميها بالدربة والدراية والإطلاع ، فالموهبة كالتربة الصالحة لابد أن يسقيها الشاعر بأمواه غزيرة تتفجر ينابيعها ، ومن تلك الروافد التي تغذي تلك الموهبة وتركت بصماتها لدى الشاعر ، هي حفظه لكتاب الله عز وجل منذ صغره ، وينجلي ذلك في تأثره بألفاظ القرآن الكريم ٠

ومن تلك الروافد أيضاً : المكتبة التي تركها له أجداده ووالده والتي لعبت دوراً في صقل موهبته الشعرية ، ولاسيما أنها كانت تضم المؤلفات الإسلامية والأدبية ٠

ومن الروافد ــ أيضاً ــ التي صقلت تلك الموهبة المتفردة عشقه للغة العربية وعشقه الشعر ، فانكب على دواوينه عبر أمشاج الشعر العربي الطويلة يعب منها عباً وضرب في بطون الكتب وأمهات المعاجم ينقب عن

---

(١) دراسات في فن الشعر للدكتور / محمود دياب محمود ، بدون ، ص ٣٢ ٠

اللغة وأسرارها الدفينة ، وكذلك حفظه للشعر القديم والحديث حيث كان معجباً بالمتنبي والبحتري ، وكذلك بشوقي ، وتجلى ذلك الأثر في شعره ٠

يقول أخوه " إنه كان يحفظ كثيراً من شعر القدامى ويحفظ المعلقات السبع وشعر المتنبي والبحتري ، وأعجب أيضاً بشوقي وغيره من الشعراء المحدثين ، ولقد ترك مجموعة مختارة من شعر المتنبي ، مما يدل على حبه الشديد وإعجابه به [١] ٠

وهذه الروافد هي أهم ما غذى موهبة هاشم الرفاعي بدم جديد تدفق في شريانها ٠

آراء النقاد في هاشم الرفاعي :

لقبه أستاذه الشاعر علي الجندي عميد كلية دار العلوم بالبحتري الصغير ، وقال عنه " لو عاش هاشم الرفاعي إلى سن الثلاثين لغطى على جميع شعراء العرب في العصر الحاضر ٠

وقال عنه الأستاذ زكي المهندس عميد كلية دار العلوم الأسبق :

" لو قدر لهاشم البقاء لكان أشعر أهل زمانه " ٠

وقال عنه الأستاذ كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم :

" إن صورة هاشم الرفاعي باقية هنا ، وقصته باقية في كل مكان في كل أرق في كل نفس ، لأنها قصة الشاب المؤمن بدينه وعروبته ووطنه ٠

وقال د / أحمد هيكل ــ أستاذ الشعر ووزير الثقافة الأسبق ــ عن هاشم الرفاعي :

فقده جــل أن يكون مصــاباً فلقد كان محنة وعذابا

---

(١) الديوان ، ص ٢٢ ٠

فلقد كان فرحة تفهم " الدار" رجـــاءً وبهجةً وشبابا
ولقد كان للعروبـــة ناياً يتغنى بمجـدها خـــــــلابا
ولقد كان وهو مثل بنينا إن شدا بزناً فنحني الرقابا

ويرثيه الشاعر الكبير " علي الجندي " ــ عميد كلية دار العلوم ــ قائلاً :

لهف نفسي على الصبا المنضـــور
لغـــة الغـــدر في ظـــــلام القبـــور
لهف نفسي على القريض المصفى
طوحـــت زهره عوادي الشـــرور[١]

وفاتـــه :

هكذا انطلق شاعرنا متمطياً صهوة جواد الشعر حيث عبر وصور وأبدع وجسد وأجاد ، ولكن البلبل سكت عن الشدو سنة ١٩٥٩ حيث سقط شاعر الصحوة الإسلامية مضرجاً بدمه ، بعد أن أغتيل بخنجر في نادي أنشاص الرياضي [٢] .

---

(١) مقدمة ديوان هاشم الرفاعي .

(٢) حسين محمد علي ، مقال " قراءة جديد في قضية قديمة " منشورة في المسائية العدد (٣٣٢١) الصادرة في ٢٢ / ١٢ / ١٩٩٢ م ، وديوان هاشم ص ١٤ .

المبحث الأول

الدراسة الموضوعية

الغزل في ديوان هاشم الرفاعي :

وحينما نتأمل الديوان الشعري الوحيد لهاشم الرفاعي ندرك أننا أمام شاعر عظيم ، لأن ديوانه جمع جميع الأغراض ولم يكف عن مداعبة المرأة حيث عكف هاشم الرفاعي على الحب ، لأنه هو القيثارة التي عزف عليها الشاعر القصائد الغزلية إيماناً منه بأن " الشعر ما وجد إلا للتعبير عن عواطف الإنسان ومشاعره وأحاسيسه ورصد دقات قلبه المتصاعدة ، لأن الشاعر يرى أن المرء ما وجد على هذا الكوكب إلا للحب ، فالحب أسمى ما في الوجود ، وأكبر نعمة جعلها الله لكل مخلوق وموجود لأن الحب يصنع المعجزات [١] .

ولعل الحب هو أهم موضوع شغل به الشاعر العربي ، فمنذ الجاهلية تغنَّى الشعراء بحبهم ، وصوروا انفعالهم وإحساسهم تلقاء من يعشقونهم ، وكانت النزعة المادية تغلب عليهم أول الأمر ، فهم يصفون المرأة وصفاً حسياً ، وقلما وقفوا عند وصف روحي نبيل ، فإن ظروف حياتهم الوثنية حينئذ كانت تدفعهم إلى هذا النوع من الغزل المادي الصريح ، فالشاعر لا ينكر نفسه ولا ينكر حبه الحسي ، وإنما يصور هذا الحب كله ، بكل وقائعه ، لا يخفى منها شيئاً .

ولما أشرق الإسلام على هذه النفوس المادية وطهرها وصفاها من أدرانها أخذ الغزل يتطور بحكم ما أصاب تلك النفوس التي تنطق به من

---

(١) أدب الرحالة ، د / محمود دياب ، بدون ، ص ٨٥ .

سمو ونبل ، وسرعان ما ظهر نوع جديد من الغزل ، هو الغزل العذري[١] ، الذي نشأ في نجد وبادية الحجاز ، والذي يترجم عن لواعج الحب ترجمه صادقة تفيض عن مواجد الشاعر وأذواقه وأشواقه ، وما يحسه بشيء إزاء الدين من مجاهدات تنقي نفسه وضميره وتشعره بشيء غير قليل من الحرمان فيحزن ، وتضيف الصحراء بسكونها ووجومها حزناً إلى حزنه الروحي ، فينظم هذا الشعر الغزلي الحزين الذي يجد قارؤه فيه غذاءً روحياً لا يقدر ، ومجنون ليلى خير مثال يصور هذا الحب السامي الذي لا يستطيع صاحبه تحقيقه .

ولكن مما لاشك فيه أن الغزل عند هؤلاء الشعراء خطا خطوات نحو رقة الحس ورهافة الشعور ...

حتى إذا ما انتقلنا إلى العصر العباسي وما اضطرب فيه الشعراء من إثم وفحش ومجون رأينا كثيراً منهم يسفون في الغزل المادي ، بل أن بعضهم من أمثال بشار بن برد ، وأبي نواس لا يجدون حرجاً في أن يتحدثوا حديثاً صريحاً عن نزوات الغريزة النوعية .

وكأنما لم يعد هناك حياء ولا ما يشبه الحياء ، وأي حياء في بيئة شاع فيها الغزل بالمذكر وملئت بالجواري التي تشترى وتباع والتي تتفنن في كل ما يغوي الرجال بالمتاع الحسي الخالص [٢] .

ولا تكتمل قيثارة الحياة إلا بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، خلقهما الله من أجل إعمار الكون ، وخلق فيهما الغريزة فرغب كل منهما في الآخر .

ولقد شهد الشعر العربي قيثارات الحب الصافي بين الشعراء

---

(١) نسبة إلى قبيلة بني عذره كان الشخص منها إذا حب عف وصبر حتى مات .

(٢) انظر : دراسات في الشعر العربي المعاصر د / شوقي ضيف ط / دار المعارف ص ٢٨ ــ ٣٣ .

ومعشوقاتهم ، ومن هؤلاء الشعراء هاشم الرفاعي الذي عزف على قيثارة المحبوبة أعظم الألحان مجسداً لوعة الحب وحسرته وحيرته ، وسوف نتناول غزل هاشم الرفاعي لكي نشتم فيه عبقه المميز وأريحه الفواح ٠

لذلك نجد شاعرنا " هاشم الرفاعي " يطلق العنان لجوارحه فيجسد لنا علاقته بالمرأة التي لا غنى للرجل عنها البتة ، ولأن المرأة تحول الصحراء الجرداء إلى جنة خضراء حيث تسقيها من أمواج رحمتها ، ومن عطرها النفاذ فتحول الصحراء إلى رياحين ، ولأن المرأة نصف المجتمع ولولا المرأة ما كان الرجل ، ولأن المرأة هي العصا السحرية التي يتوكأ عليها الرجل إذا بلغ من الكبر عتيا ٠

لذلك ارتبط شاعرنا بالمرأة وعبر عن عواطفه الجياشة المتدفقة من قلب تصاعدت دقاته بسبب ولعه بالمرأة وعشقه لها ، وبسبب جمالها الأخاذ الذي يأسر الألباب ٠

وعلى الرغم من أن شعر هاشم الرفاعي لفه الحزن ، ومرجع ذلك أن الشعر صدى لنبض حياته وعصره ؛ وانعكاس لقضاياه الاجتماعية والسياسية التي يعيشها الشاعر ، وأن الشعر يولد من رحم المجتمع ، إلا إنه لم يكن بعيداً عن تجارب أصدقائه في الحب حيث إنه عاش تلك القصص الرومانسية من خلال أحاديثهم ، لذلك راح هاشم الرفاعي يجسد قصص غيره في العشق ويوجه اللوم لمعشوقته التي ألهبت ظهره بسياط البعد والفراق والصد والهجران ، ولذا لم يكن الحزن ببعيد من شعره الغزلي ٠

والدارس لشعر هاشم الرفاعي يجد نفسه أمام فيض يتدفق ويموج بالعاطفة ، ويأخذ عليه أقطار نفسه بما فيه من صدق فني وجمال ساحر ونغم أخاذ ينساب إلى القلب ، فيستولي عليه ، ولنطف في شعر هاشم الرفاعي حيث العاطفة والجمال الساحر والنغم الأخاذ٠

فقد جعل الشاعر باباً من ديوانه العاطفة والمرأة " جاء فيه بخمس عشرة قصيدة كلها تدور حول المحبوبة وهياج الذكرى والحنين والصد والهجران ٠

١ ـ الغزل الحسي :

الشاعر هاشم الرفاعي يحدثنا في قصيدته " راقصة " عن إنسانه وقع في غرامها وأعجب بها ، ووصفها وصفاً حسياً كما هو الغالب عند كثير من القدماء ٠

حيث يصف تلك الراقصة حسياً فيبدأ بذكر ما يميز به المرأة الجميلة وهو الجفن حيث شبهه بغمد السيف ثم يصف جسم الراقصة ، فجسمها كطيف النور قد أعطاها الله الجمال الأخاذ والقوام الذي يسلب العقول حيث عبر بأن جسمها ينضح فتنة ، ويغطي هذا الجسم غلاله شفافة تبين السحر الخفي ، فهو مبهور بها وبحركاتها الجميلة حتى أن ملابسها لم تكن بمنأى عن اهتمام الشاعر فقد كانت تحمل عبقها المميز وأريحها الفواح ، يقول :

وجفن كغمد السيف ، لا بل كحـــده
إذا سل أصمى [١] العابد المترهبـــــا

وجسم كطيف النور ينضح فتنـــــة
مشت فيه نيران الصبا فتلهبـــــــا

عليه من الوشى الرقيق غلالـــــة
أبانت لنا السحر الخفي المحجبـــــا

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، المجموعة الجاملة ، جمع وتحقيق محمد حسن بريغش ، مكتبة المنار ص ٢٨٩ ٠

وإن أنس لا أنساك ليـــــلة جئتنا
يزينك برادن : الملاحة والصـــــــبا

وفاض فتون من جبـــــين معصـــب
فديت بعيني الجـــــبين المعصـــــــبا

ثم يكمل الشاعر رسم اللوحة الفنية ببراعة عندما يصف حركات الراقصة وهي تفجر منها ينابيع الفتنة والأنوثة والجمال البارع والحسن الأخاذ بتحركاتها فجرت لديه ينابيع الشهوة وحركت الأهواء الراكدة لديه فهام بها حيث وصف حركات الأيدي وشعرها الذي يتراقص مع تلك الأيدي حتى أن الأنغام سكرت من جمالها وهي تهز الردف والنهد ثم هام بها عندما كشف الساق وكسرت الحاجب ، وهي تنثنى وتتلوى كغصن البان حتى إذا ما مالت مال الكون به وتخيل أنه مريض يطلب الطبيب فيقول [١] .

وقبل ذو الناي المخضب نايـــــــــه
فأسمعنا لحناً شجياً وأطربـــــــــا

هنـــالك أرســـــلت اليديـــــن فكانتا
على فرعك المنشـــــور تاجاً مذهبا

وطافت بك الأنغـــــــام سكرى تأودت
فهزت لنا ردفاً ونهداً مدربـــــــــا

وكشفت عن ساق وكسرت حاجبـــــاً
وثنيت أعطافاً ورفصت منكبـــــــا

ومالتي فمال الكون بي وأخالنـــــــي

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٨٩ .

خرجت من الإعياء أرجو المطبـــا

وفي قصيدة أخرى يصف المحبوبة فهي كالزهر اليانع الباسم ، وإذا مشت فهي تمشي مختالة كالغزالة الصغيرة المدللة ، وإذا ما كانت بين أترابها فهي ظبية ناعمة تشبه وسط العقد تمشي ووسطها كغصن البان الذي يتمايل ويثني ، وهي جميلة أعطاها الله الجمال فتنفجر منها ينابيع الرقة والأنوثة حتى أنه يخاف عليها من الحسن فيقول [١] .

بكرت إلى النهـــر الوديع الحالم ∴ كالزهـــــر أينـــع بالربيع الباسم
ومشت إليه يزينهـــا برد الصبا ∴ تختال كالرشـــــاد الربيب الناعم
بين الظباء الخود من أترابهـــا ∴ تحكي تتابعهـــــن عقـــد الناظم
المائسات لدى الشروق عواطفاً ∴ كالبان داعبه رقيـــق نســـــائم
المرسلات على الغديـــر غدائراً ∴ الرانيات بمثـــــل حـــد الصارم
من كل فاتنة يصون جمـــــالها ∴ من أعين الحســـــاد عقد تمائم
ما إن ترى منهن أجمـــــل رقة ∴ إذ رحن فوق الماء سرب حمائم

ثم يعلن في وضوح وبغير مواربة أنه يعشق فتاته ، وأنها ملكت عليه أقطار نفسه ، وأن حبها ملأ عيونه وملأ روحه ، فليس لديه ما يشغله عنها ، فصور لنا عالم المحبة فتناول محبوبته لكي يعبر عن حالته الوجدانية بالسعادة ، ويسجل لحظة يتولد فيها الوجدان لحظة لقاء العاشقين حيث يثبت كل منها الآهات ، فيقول [٢] :

يا بنت ذا الريف الجميل لقد مضـــى
عهد ونحن على البعاد القـــــــائم

ها قد أتيتك بعد نازح غربـــــــة
فتهيأي للقاء صب قـــــــــادم

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٨٣ .
(٢) الديوان ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

هل تذكرين على الضفاف مجـالساً
مرت علينا مثـل حلم النـــــائم

أشكو إليك هوى وأشـــرح لوعـة
وأبث أنات الحنين العـــــارم

ولرب بدر غاب ساطع نـــــــوره
فظللت منك لدى ضياء دائـــــم

قسماً بمشبوب الغرام وإنـــــــــه
للظى تأجج في الفؤاد الهائـــم

لم أخش يوماً في هواك وشـــــاية
أو خفت في لقياك لومة لائـــم

بنت الطبيعة إن أحب فؤادهـــــــا
تلق الحبيب على عفاف ســـالم

وفي قصيدة أخرى وهو يتحدث عن فاتنة ويصفها بأوصاف خاصة وحسية ، وذلك من وصف تلك الفاتنة وكشف عن مفاتن جسدها ، فرأى عينها ترمي بسهام فتاكة ، ووجهاً وضاء يغلب عليه النور ، أما الثغر والوجه يشع منهما نور يضيء الظلام ، أما الصدر فمن جماله يطلق الإنسان فيه خياله ليتخيل ما يشاء ، أما خصرها فرقيق أهيف ، ممشوق يحتوي الذراع ، فأوصافها تسلب الألباب، وجمالها الأخاذ يسحر العيون، فيقول[1] :

ملء عينيـك دعـوة للنـــزال ∴ وبجفنيـــك فاتـك من نصال
لست أقوى عليهما لست أقـوى ∴ إنما أنت شعـلة مـن جمـال
قد دعوت الفـــؤاد حتى تردى ∴ فأبنـــــت الدلال كـل الدلال

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٨ .

بسمة الوجه في دجى الشعر تحكي ∴ ومضة الفجر في ظلام الليالي
ذلك الثغـــر باهتصـــارك يغري ∴ ذلك الصـــدر ملهـــب للخيال
في قـــوام متى احتواه ذراعي ∴ وأطل الردى فلســـــت أبالي

وفي قصيدة أخرى يتحدث عن محبوبته ومعشوقته ويصفها بأوصاف تقليدية جرت على ألسنة الشعراء من قبل ، حيث العيون السحرية التي تسحر العقول ، والرائحة الذكية التي تفوق رائحة الرياض ، وفي اللحظ وسن وفتور يفعل في القلوب ما لا تفعله السيوف ، ومحياها أبهى من البدر، فهي تفوق الظبي جمالاً ، وكل شيء جميل يختفي أمام جمالها ، فوجهها بدر ، وطلعتها بهية ، فوقع الشاعر في غرامها فأصبح قلبه مريضاً بلوعة الحب ، فيقول [١] :

كعاب يسر العين من حسن خطوهـــا
تأود أعطاف ولين قيـــــــــــود

كأن بياض الوجه والفرع حـــــوله
تبلج بدر في دجنـــــة بيـــــــد

تريك بهاء الورد في وجناتهـــــا
وتبسم عن مثل الأقاح نضيـــــد

تفوق المها في الحسن طرفاً أو مقلة
وتحكي ظباء القاع لفتة جـــيد

من اللاء يشقين الخلي بنظـــــــرة
فيمسي بقلب في الغرام عميـــد

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٩ .

ومن عجب في الجفن سقم بداوكـــم
لـه من شهيد راح إثر شهـــــــيد

مصدقة لا تخلف الوعد مـــــــــــرة
وزينة ذات الدل صدق وعـــــــود

وموقف يوم الوداع وقد بـــــــــدا
لها لؤلؤ ينساب فـــــــوق ورود

الغزل العاطفي :

في هذا المقام نجد نبرة هاشمٍ الرفاعي عندما يستعطف المحبوبة أو يعاتبها هادئة متألمة حيث يرسل إلى محبوبته عتاباً واستعطافاً ، مسترحماً أن تواصله ، وأنك لتحس أمام هذا الشعر بالألم واللوعة والحزن والقلق والأرق لهجر أو صد المحبوبة ، فيبث شكواه ويرسل أنينه ٠

يعلق صيحاته التي تمتزج باللوعة والحسرة ، حيث زحفت ظلال الحزن على قلبه وجوارحه ؛ فضاق صدره ، وانطلق لسانه يعبر عما يجيش في أعماقه من لوعة وتمزق ، فيقف الشاعر مع محبوبته في ميدان الهوى يتبارزان بسيوف الحب فأسرت قلبه واستحوذت عليه فلم يستطع المقاومة بل سقط صريعاً ، ولذا يبدأ قصيدته بسؤالها من الجاني على قلبه ووجدانه ٠

فيقول [١] :

تسائلني : مـــن الجـــاني ∴ علـــى قلـــــبي ووجداني
ومـــن منـــا الذي أغفـــ ∴ ـــل عن قصد هوى الثاني
سلوت ولســـت من تجـــ ∴ ـــزيك ســـــلواناً بسلوان

---

(١) الديوان ، ص ٢٩٤ ٠

وأصفيت الهوى أخـــرى ∴ فقلهـــا : لســـــت تهواني

ثم يقف الشاعر موقف المتعجب من معشوقته التي يتيه بها عشقاً وجمالاً وهي لا تأبه بهذا الأمر ولا تمنحه أي تفكير حيث إنها نسيت اللقاء والأحاديث العذبة ، فيقول [١] :

نسيـــت لقـــاءنا بالرو ∴ ض يوم زرعته حبـــــاً
وكنت تصـــب في أذني ∴ حديثاً ساحـــــراً عـــذاباً
وتهمس بالأماني البيـــ ∴ ـــض شعراً أيقظ القلبـــا
فرحت أعانق الأزهـــــا ∴ ر والأنســـــــام والعشبا
وبعد هناء قلبينـــــــــا ∴ وقصة حبنـــــا النامـــي
تلاشى عطفك المشبـــو ∴ ب ، ضاعت كل أحلامي
وماتت أغنيات تـــــــر ∴ توي من نبع إلهـــــامي
وما طالعتني يومـــــــا ∴ بغير قصيدك الدامـــــي

وتنتهي المعركة بهزيمته حيث وقع أسير قوامها ، ويطلب منها أن تنظر في أوراق القضية ويستعطفها ألا يكون حكمها قاسياً ، متمنياً اللقاء معاتباً إياها ، طالباً منها ألا تهجره ، لأنها لو هجرته لتركته ينصهر في بوتقة الأحزان والألم ، وهو يحلق في عالم الذكريات ويرنو ببصره إلى الأيام الخوالي التي شهدت وصلاً وتناغماً بينه وبين المحبوبة ، فيقول [٢] :

وعـــدت إذا التقينـــا لا ∴ تجيـــــب حنـــين أعماقي
وتجلس شارد النظـــرا ∴ ت في صمـــت وإطـــراق
يطل العطف من عينيـــ ∴ ـــك ممزوجـــــاً بإشـــفاق

---

(١) الديوان ، ص ٢٩٤ .

(٢) الديوان ، ص ٢٩٥ .

أجبني ٠٠ أين ميثـــا ∴ قك ؟ إني صنـــت ميثاقي
أنا يا غادتي الحسنـــا ∴ ء أطوي في الحشا جمرا
ظلمت هواي لم أعشق ∴ سواك وليـــس لي أخرى
ولو فكرت في هجـــري ∴ لعشت عـــلى ســـنا الذكرى
وأبكيت الوجود معـــي ∴ وفجـــرت الأسى شعـــرا
ولكنـــي رأيـــت القيـــ ∴ ـــد قد أدمـــى لي القدمـــا
وأغلالاً تـــلف يـــدي ∴ تعذبنـــي ، تســـيل دمـــا
وأفئـــدة تنـــادي الفجـــ ∴ ـــر ثم تعـــانق الظلمـــا
فصغت ـ كما رأيت ـ الشعـــ ∴ ـــر ينضـــح لفظـــه ألمـــا

* * *

فإن لم تسمـــعي منـــي ∴ نشـــيداً حـــالم الغـــزل
ولم تجدي ســـوى أنـــا ∴ ت جـــرح غير منـــدمل
فلا تجـــري وراء الوهـــ ∴ ـــم وانتصري علي على الملل
وكوني مسلمـــــاً عود ∴ تني مشـــبوبة الأمـــل

وفي قصيدة أخرى يغزل خيوطه الفنية الناعمة الرقيقة التي تقطر رقة وسحراً ويفيض بالمشاعر الدفينة والأحاسيس المتوهجة بعد أن ضاق صدره وانطلق لسانه معبراً عن عواطفه الجياشة ومشاعره الدفينة ، وهو يعيد شريط الذكريات التي تشرح الصدور ، وتسعد القلوب ، وانطلق ممتطياً صهوة جواد الشعر حيث عبر وأبدع وجسد وأجاد ٠

ويقرر أن حبه لمحبوبته ليس سهلاً ولكنه حب قد حفر في قلبه لا يستطيع منه فكاكا ، ولذلك يعزي نفسه على فراق المحبوبة الذي أصاب قمر عمره بالخسوف وشمس حياته بالكسوف ، لذلك يتحسر على نفسه

وعلى الذكريات التي قضاها مع محبوبته ، فيقول [١] :

يا حبيبي قــم فهذي ∴ ربوة الليل الأمــين
عندها تاريــخ حــب ∴ خالد رغم السنــين
كم محب قد رواهــا ∴ منه بالدمع السخين
ومحب في حماهـــا ∴ ذاق شهد العاشقين

* * *

يالهامــن ذكريــات ∴ آه من عهــد هوانا
كم كؤوس مترعــات ∴ ها هنا الحب سقانا
فشربنــا وطربنـــا ∴ وسخرنا من سوانا
لا نبالي بعـــــذول ∴ أو رقيب قــد رآنا

* * *

رب ليـــل يا حبيبي ∴ مر كالحلم الجمــيل
فيــه سرنــا ويميني ∴ لف بالخصر النحيل
للهــوى نتلــو نشيداً ∴ بين زهر ونخـــيل
يؤنس البــدر علينــا ∴ وحشة الليل الطويل

ولقد تزلزلت الأرض تحت قدمي " هاشم الرفاعي " وهو يرقب أفول نجم قلبه حيث إن محبوبته قد هجرته ومزقت خيوط الوصل بينه وبينها وعضه الزمن بأنيابه وقلب له ظهر المجن ، فعبر في هذه الأبيات عن حزن عميق ، ولوعة تمزق نياط القلب وتفري الكبد ، فتصدعت نفسه وتبدى القلق واضحاً على الشاعر وهو ينصهر في بوتقة الحيرة ويكتوي بجذوة الألم ، حزناً على معشوقته التي مزق فراقها نياط قلبه حيث حاصره العذاب من بين يديه ومن خلفه وحطم قلبه الضنى فعاش شارد الذهن ،

---

(١) الديوان ص ٢٧٧ .

مشتت الفكر ، محطم القلب ، ممزق الوجدان [١] :

لي في الهوى قلب حزين ∴ قــد بات يدميه الأنين
عصف الغرام به كمـــا ∴ عصفت رياح بالسفين
كتب الشقـــاء له وكــم ∴ سعدت قلوب العاشقين
قــد فاض وجـــداً بينما ∴ قلــب الأحبــة لا يلين
لا يشتكي ألــم الهـــوى ∴ قلبي بشكوته ضنــين

وفي قصيدة أخرى يجسد لوعته وحزنه الدفين على فراق محبوبته ، حيث انهمرت دموعه كالسيل العرم على القصر المشيد من الحب الذي قوض بنيانه في لحظة غضب هجرته فيها المعشوقة ، فمزقت خيوط الوصل وفشلت جميع المحاولات لجمع الشمل حتى أنه استحلفها بالله ألا تهجر محبوبها ، ولكن هيهات ، فانصهر العاشق في بوتقة الأحزان حيث مزقته الآلام ، ولم يستطيع لمعشوقه النسيان ٠

وتركته المحبوبة يلعق جراحه منفرداً حزيناً قلبه ، فبات مريض القلب يشكو الوجيعة ويستعطفها طالباً منها أن تكف عن الصد والهجران ، ويتساءل ما الذنب الذي ارتكبه حتى تفعل به ما فعلت ٠

ويبين الشاعر أن حبه لها هو الذي أقلقه وكدر صفوه وزلزل حصونه ، فانطوى على نفسه يلعق جراحه ، ولكن هيهات لجرحه إن يندمل فهو غائر لا يشفيه سوى الوصل ولا يجفف دمعه سوى تباريح الهوى وجسور التلاقي يقول [٢] :

لا تهجريه بحـــق مــن أولاك ∴ عرش الجمـــال ، فإنه يهواك

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٦ ٠
(٢) الديوان ، ص ٢٧٤ ٠

وأراه قد ملك الغـرام زمامـــه ∴ ما عاد يرغب في الحياة سواك
أفلا رحمت من الهــوى وسعيره ∴ من بات من فرط الصبابة باكي
صب أصاب فؤاده سهــم الهوى ∴ فهوى وجف الغصن من مضناك
ذاق الهوان ، وما برحــت خياله ∴ وبكى الدمــوع دماً ولن ينساك
عرف السبيل إلى البكاء ولم يكن ∴ يدري الســبيل إلى البكا لولاك
برحتــه وجــداً، فبــات مسهداً ∴ يشكو الوجيعــة للذي أنشــاك
ويبوح بالســـر الدفــين لأنجم ∴ باتــت لكربتـــه بجفــن باك
يا درة السحر الحـــلال وتاجه ∴ رفقاً كفاك ما جفــوت كفــاك
مــاذا جنى حـــتى أراك تركته ∴ ظمآن في دنيــا الهوى للقاك
طول القطيعة ليس في شرع الهوى ∴ يا من هجرت وطال حبــل نواك
ما بال بــاب الود قــد أوصدته ∴ ضنا به وفتحت باب جفـــاك
أرضيت أن يقضي عليــه متيماً ∴ لم يرتشف يوماً كؤوس رضاك
ليلى : رميت من العيون بأسهــم ∴ وجعلت من قلب الفتى مرمــاك
فمضى وأدركه الذبــول مبــكراً ∴ ما كان ضرك لو رحمت فتــاك

وكان هاشم الرفاعي كثير الشكوى والتألم من ظلم محبوبته له ، وتعمد هجرانه من غير ذنب اقترفه ، وهذه الأبيات تتسم بالشكوى واللوم والتبرم ، وقد ظهر هذا بجلاء في إحدى قصائده قائلاً [١] :

أحبك رغــم الأسى والدلال ∴ وأهواك ناهيــة آمـــره
ويشهدني النجــع في لوعة ∴ أغــص بعبرتي الساهره
ويغلبني في هــواك الحنين ∴ فألتــم أطيـــافك الزائره

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٥ .

وإني لأرضى بهـذا البعـاد ∴ وأقنع بالنظـرة العابره
وما أنس لا أنس يوم اللقاء ∴ بجانـب ساقيـه دائره
فما هي منك سـوى نظرة ∴ من العين في لفتة ساحره
وعدت أسير عيـون المهاة ∴ فسواها لمقلتك القاهره !!
عشقتك يا بنت مهد الجمال ∴ ولسـت أظنك بي شاعره
فحسـب فـؤادي ما ذاقه ∴ شقـياً بفتنتـك السـافره

فالأبيات السابقة تصبغها حالة شعورية واحدة تنساب في طياتها ، تسجل دفقه شعورية تعبر عن انقضاضاته النفسية ومشاعره الخفية ، فيعترف بحبه لمعشوقته رغم دلالها وصدها وهجرها ، فلم يعشق سواها ولن يستطيع أن ينساها لأن جمالها أسر قلبه وسهم عيونها فتكت به وسيطرت عليه ، فلا يستطيع الانفكاك عن هذا الحب ، الذي تملك مشاعره وأحاسيسه المتدفقة التي لا تتوقف البتة ٠

وفي قصيدة أخرى يتحدث إلى محبوبته التي شغلت قلبه البكر وأشعلته جحيماً لا يطاق ، جسد فيها الشاعر ألمه ورصد عذابات الوحدة التي ينصهر في بوتقتها ، حيث أصابه نار الهوى واحترق ومزق قلبه ، ويطلب من خليليه ألا يلوماه على ذلك فهو لا يذوق للنوم طعماً ، وأصبح مصيره مصير قيس بن عامر حيث أهلكه البعاد ، وإذا عز الوصال في الدنيا فسيجمعهما القبر سوياً قائلاً [١] :

قفا حادثاني هل أصابكما وجد
وهل أسهدت في الحـب عينكما هند

وهل ذقتما نار الهوى ولهيبه
كما ذاقها صب أضـر به السهـد

---

(١) الديوان ، ص ٢٧١ ٠

فإن لم تكونا تعرفان من الهوى
سوى لفظه ، بشرى فذاك هو السعد

فإن الهوى داء إذا مـــلك الفتى
أمســـى وأضحـــى وما من قتـــله بد

خليلي رفقاً لا تلوما فإنـــــــني
جننت بهـــــا حباً وأهلكني الصـــــد

أبيت بليل لا أذوق منامـــــــــه
وأصحو فلا أدري إلى أيهـــا القصد

إذا مرت النسمات خلت عواصفاً
وإن غرد العصفور أحسبه الرعـــد

مصيري وربي مثل قيس بن عامر
لما نأت ليلاه أهلكـــه البعـــــــــد

سأقتل نفسي إن أبت هي وصلهـــا
وإن هي جادت كان عيشي إذاً رغد

وما للفتى ذنب إذا هزه الهـــــوى
وأضناه من يهوى وأرهقه الوجـــد

سلام على قلبي إذا طال هجرهـــــا
سيفني ويمضي حيث يجمعنا اللحد

وفي نهاية الأبيات يبين لنا أنه قد أزف على الرحيل وأصبح من الهلاك قريباً قرب حبل الوريد ، لذا يعزي نفسه بنفسه على فراق المحبوبة حيث تطوي صفحة عمره لذلك يتحسر على نفسه أشد الحسرة ٠

وعلى الرغم من ذلك نرى الشاعر يرفع يده إلى السماء طالباً الرفق والرحمة من الله سبحانه وتعالى لما أصابه من العذاب والألم لفراق المحبوبة الذي مزق قلبه فبكى أنهاراً من الدموع ٠

وحاول الشاعر التعبير عن آلامه وجراحه التي تشتعل في جوارحه، فيأبى النوم زيارته فيمكث بين أحضان الليل كالعابد المتهجد الذي خاصمه النوم بسبب الشقاء من هجران المحبوبة ومن الجرح الذي لا يندمل بسبب الصد من المحبوبة فبكى بكاءً شديداً ، وانصهرت في بوتقة العشق واكتوى بجذوة الفراق الذي ألهب ظهره بالسياط وتلاشى بين آهات اللقاء وعذابات الفراق ، فأصبح كالمريض الذي اشتد به الداء وجعله ينام على فراش الشوك فيتقلب في الفراش حتى أنه سئم السهد لأنه يعاني من الغرام ٠

وفي أخرى يجسد لنا المعاناة وما لاقاه من الحب وما انعكس على جسده منه يقول [١] :

يا إله الحـــب رفقاً ∴ قد وهى خيطي ورقا
وسئمت السهد ليلاً ∴ إنني بالســـهد أشقى
فسلام من جريـــح ∴ قد قضى الأيام عشقا

* * *

يا إله الحـــب رفقاً ∴ هدني سكب الدمـــوع
وسئمت السهد ليلاً ∴ والجوى بين الضلوع
فسلام مـــن جريح ∴ لم يذق طعم الهجـــوع

* * *

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٢ ٠

يا إله الحـــب رفقاً ∴ مت هجـــراناً وصدا

وسئمت السهد ليلاً ∴ والبكا حباً ووجـــدا

فسلام من جريـــح ∴ عاهد الأحزان عهداً

في غرامي كم أعاني !

إن سهدي قد براني !

لم ينل غير الهوان !

يا إله الحب رفقاً ∴ قد وهى خيطي ورقا

إن غصني جف زهره

والندى ينهل قطره

في غد يحفر قبره

يا إله الحب رفقاً ∴ قد وهى خيطي ورقا

ويتضح مما سبق ــ أن هاشماً الرفاعي راح يصف المحبوبة بأوصاف حسية ، طالما أشار إليها قدامى الشعراء ومحدثوهم فوصف وجه المحبوبة بالبدر، وعيناها بالظبي ، وجيدها بالغزال ، ووجهها بالنور الذي يضيء الظلام ٠

مع ترديد معاني الشوق ، والسهد ، وسهر الليل ، وإراقة الدمع ، والمعاناة من الفراق ، وفقدان الجنان، وولـه القلب ، وتهيج الشوق في صدره ٠

المبحث الثاني

الوسائط الفنية في شعر الغزل عند هاشم الرفاعي

أولاً : التناص :

التناص ظاهرة طبيعية وضرورية وهي تدل على اتساع ثقافة المبدع وتوظيف تلك الثقافة داخل النص ٠

وهو " مصطلح من المصطلحات المستحدثة التي تم التواضع عليها في مجال الدرس الأدبي والنقدي ، وخاصة بعد استعاضة الحديث عن الثنائية والأسلوبية ، وما قدماه من جديد سواء على مستوى الإبداع أو مستوى التفسير ، وقد أصبح هذا المصطلح أداة كشفية صالحة للتعامل مع النص القديم والجديد على سواء [١] ٠

وقد عرفت هذه الظاهرة بشكل أو بآخر في التاريخ الأدبي لكل أدب تحت مسميات أخرى كالسرقات ، والاقتباس ، والاستشهاد ، والتضمن ، وربما التقليد وكذلك المعارضة [٢] ٠

وظاهرة التناص من الظواهر التي سيطرت على أسلوب هاشم الرفاعي في شعره الغزلي ، وخاصة التناص الديني الذي يعد دليلاً واضحاً على انبهار وإعجاب هاشم الرفاعي، بالنص الديني وخاصة النص القرآني ٠

وأشكال التناص اللفظي والمعنوي مع القرآن الكريم ، يتمثل في المفردة دينية كانت أو جملة ، أو معنى من المعاني ، فالمتتبع لمفردات

---

(١) عن ظاهرة التناص ، انظر : " د / محمد عبد المطلب ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، ص ١٣٦ ، وما بعدها ط " لونجمان ١٩٩٥ م ٠

(٢) محمد فكري الجزار ، لسانيات الاختلاف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة كتابات نقدية سنة ١٩٩٥ م ، ص ٤٥٩ ، أو ديوان محمد الأبنودي / للدكتور أحمد عبد المجيد خليفة ط سنة ٢٠٠١ ، ص ١٦ ٠

هاشم الرفاعي، يكاد يجزم بأنه يستفيد كثيراً من الألفاظ القرآنية، إنه يقتحم بالقاموس القرآني عالمه الشعري، لأنه معجب ببيان القرآن وفصاحته ٠

ومن التناص مع القرآن قوله :

وقطفنا في هناء ∴ للهدى ثمراً جنياً

وهفنـــا أن نأتي ∴ أيها الليـــل مليا

فاستخدم واقتبس قوله : (شهياً ــ جنيا ــ مليا) متأثراً بقوله تعالى في سورة طه في الآية رقم (٢٥) : " وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً " ، وقوله تعالى في سورة طه الآية رقم (٤٦) : " أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِياً " ٠

ومنه قوله [١] :

رويدك أيتها السائرة ∴ على سندس الخضرة الناضرة

متأثر بقوله تعالى في سورة الإنسان الآية رقم (٢١) : " عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً " ٠

وقوله [٢] :

وتداعت أضلعي واحترقت ∴ أمنياتي في لهيب الشفق

متأثر بقوله تعالى في سورة الانشقاق الآية رقم (١٦) : " فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ " ٠

وإذاً كان هاشم الرفاعي يقتبس من القرآن بعض الألفاظ ، أو بعض المعاني ، أو يضمن شعره أثراً من روح القرآن ووحيه ، فإن ذلك يظهر

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٨٥ ٠

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٩٢ ٠

بجلاء حيناً وبشيء من التلميح حيناً آخر من خلال أشكال تناصية واضحة مع القرآن كاشفاً في ذلك كله أبعاداً دلالية ، فأصبح الموروث الديني مصدراً أساسياً من المصادر التي عكف عليها هاشم الرفاعي وأفاد منه في شعره عامة وفي شعره الغزلي خاصة ، وهذا ليس بغريب كما يقول زايد العشري: " ليس غريباً أن يكون الموروث الديني مصدراً أساسياً من المصادر التي عكف عليها شعراؤنا المعاصرون ، واستمدوا منها شخصيات تراثية عبروا من خلالها عن بعض جوانب من تجاربهم الخاصة " [١] .

ومن التناص مع النصوص الشعرية قوله [٢] :

فمضى وأدركه الذبول مبكراً ∴ ما كان ضرك لو رحمت فتاك
ما بال باب الود قد أوصدته ∴ ضنا به وفتحت باب جفـــــاك

هذا تناص مع قول أحمد شوقي في قصيدته المشهورة :

يا جارة الوادي طربت وعادني ∴ ما يشبه الأحلام من ذكراك [٣]

وتكاد تكون شخصية امرئ القيس شخصية نموذجية في رحلة الشعر قديمه وحديثه ، فلطالما استلهم الشعراء شعر امرئ القيس ، وهذا يرجع إلى مكانة وأهمية امرئ القيس بالتجربة الحياتية والشعرية الخفيه بإيحاءاتها .

ومن الشعراء الذين استلهموا شعر امرئ القيس .. هاشم الرفاعي في قوله [٤] :

قفا حدثاني هل أصابكما وجد ∴ وهل أسهرت في الحب عينكما هند

---

(١) زايد علي العشري ــ استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ١٩٩٧ ، ص ٧٦ .

(٢) ديوان الشوقيات ج ٢ ص ١٧٩ .

(٣) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٧٥ .

(٤) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٧١ .

فهذا تناص في استهلاله بقوله " قفا " في قول امرئ القيس في معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ∴ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومن التناص مع الشعر العربي أيضاً قوله [١] :

من اللائي يشقين الخلي بنظرة ∴ فيمسي بقلب في الغرام عميد

تناص مع شعر بشار بن برد في قصيدته " الظبي مسكنه الفلاة " في قوله :

" عاد الغداة الصب عيد ∴ فالقلب مبتول عميد " [٢]

وقوله [٣] :

وأراه قد ملك الغرام زمامه ∴ ما عاد يرغب في الحياة سواك

متأثر بقول بشار في قصيدته روحي فداك :

عاشقاً ليس له ذكر ∴ ولا هم ســـــــواك [٤]

ويرجع استخدام هاشم الرفاعي للتناص لاعتبارات كثيرة منها :

ثقافته الإسلامية التي تعد مصدراً من مصادر تكوينه الفكري ، ورغبته في إبراز الحجة القاطعة ، والدليل الذي يحمل اليقين ، وكذلك ثقافته الشعرية وهي ضربه في بطون الشعر القديم ٠

وقد أحسن شاعرنا توظيف النصوص التي تناص معها في شعره

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٢٧٩ ٠

(٢) ديوان بشار بن برد شرح وتحقيق مهدي محمود ناصر الدين ، ص ٢٩٨ ، ط / دار الكتب بيروت ١٩٩٣ م ٠

(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ٢٧٤ ٠

(٤) ديوان بشار ص ٥٧١ ٠

توظيفاً جيداً ، وبرع في استلهام بعض الأحداث من النص القرآني ، مع إدخال الألفاظ القرآنية في سياق التعبير، وتوظيفها جيداً ، وتوزيعها توزيعاً متناسقاً ، وكأنها نسيج واحد ٠

ثانيـاً : اللفـظ :

اللفظ هو وسيلتنا لإدراك القيمة الشعورية في العمل الأدبي وهو الأداة المهيأة للأديب لينقل إلينا خلالها تجربته الشعورية ففي أي عمل أدبي كما هو في التماثل أو الصورة تناغم بين الفنان والطبيعة ، وفي تجربته الفنية يشكل بالألفاظ تصوراً لما حوله أو لبعض ما حوله ، ويقدمه لنا في إطار يحرص ــ واعياً أو غير واع ــ على أن يضمنه ، أحاسيسه وأفكاره [١] ٠

والحقيقة أن الكلمة لا قيمة لها إلا داخل الجملة ، فاللغة ليست ألفاظاً ولا مفردات ، ولكنها علاقات حميمة يتألف منها الأسلوب ٠

ويرى علماء اللغة أنه من المحال أن نصادر أحكاماً فلسفها شاعر ما ؛ أو على آرائه دون تحليل مسبق للغة هذا الشعر ، فكل شاعر يتناول الأغراض التي يكتب فيها رؤيا معينة مستعيناً في التعبير عنها بوسائل أسلوبية مميزة ، وغالباً ما يمكن إيجاد علاقة ثابتة بين بعض هذه الوسائل وبين غرض من الأغراض [٢] ٠

والأدب قائم على الاختيار والاستقصاء ، والشاعر يختار من اللغة المفردة التي في إمكانها إبراز عواطفه ثم يصنع تنسيقاً بين هذه المفردات ليتم التناغم بين المفردات لتنشأ موسيقا معبرة عن وجدان الشاعر ٠

---

(١) انظر الدكتور أحمد كمال زكي ، النقد الأدبي الحديث ، أصوله واتجاهاته ص ٣٩ ، دار النهضة العربية ــ بيروت ، سنة ١٩٨١ م ٠

(٢) د٠ علي عزت ــ اللغة والدلالة في الشعر ص ٩، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م٠

والشاعر عندما يستخدم الألفاظ لا يستخدمها بمدلولها اللغوي فحسب وإنما بعد مراعاته لهذا المدلول ، يحمل الكلمة شحنة انفعالية قادرة على نقل إحساسه ٠ والكلمة لا تعني في هذا المقام وحدها ، بل يجب وضعها في جملة تأخذ مما يجاورها وتعطيه فكل كلمة محملة بالوجدان إلى جانب المدلول الوضعي لها ، اكتسبته من الاستعمال في مواقف وجدانية معينة ، فتظل تعطي وتفجر ذكرياتها القديمة فيستعين بها الشاعر في نقل إحساسه إلى المتلقي ، ونحن إذ نتابع الشاعر هنا في مفرداته لا نطلب منها عطاء منفرداً ، وإنما ما تبوح به داخل الجملة وما ترتبط به معها من أحاسيس وانفعالات ، لأن الشعر تعبير وجداني ، والشاعر حين يصنع جملته ويختار لها المفردات لابد أن تكون معبرة عن المعنى المراد حسب وضعها ، وناقلة للوجدان حسب تفجيرها للذكريات التي استفاد منها في استعمالها الأدبي [١] ٠

وعلى هذا وفي مجال التطبيق ، تقضينا الدراسة الفنية أن نحلل الملامح اللفظية المميزة لشعر الغزل عند هاشم الرفاعي ، ثم إبراز الألفاظ والتراكيب اللفظية في شعره ، فإذا نظرنا إلى شعره الغزلي نجد أن هاشم الرفاعي استخدم ألفاظاً وتراكيب لفظية ، ذات دلالات متنوعة تختلف باختلاف أحاسيسه وخواطره ٠

ولغة هاشم الرفاعي واضحة ملائمة للغرض وللتجربة ، ولذلك كانت قادرة على الإشارة وعلى نقل الوجدان المراد به ٠

كما كان يفتش عن اللفظ المناسب للموضوع ويوائم بين موسيقا الطول والقصر ، وبين المعاني والأغراض ، ويعني تماماً بتوفير عناصر الجمال اللفظي لشعره ؛ ففي وصف الراقصة استخدم ألفاظاً معبرة ، تماماً

---

(١) النصوص الأدبية أ ٠ د / عبد اللاه محمود حسن محروس ، بدون ، ص ٢٥٣ ٠

عن نفس الشاعر ووجدانه، ألفاظاً سيطر عليها جو الحب والعشق والمرح، فنراه يقول [١] :

وجفن كغمد السيف ، لا بل كحـــــده
إذا سل أصمى العابد المترهبـــــــا

وجسم كطيف النـــــور ينضح فتنـــة
مشت فيه نيران الصبا فتلهبـــــــــا

عليه من الوشى الرقيق غلانـــــــــة
أبانت لنا السحر الخفي المحجبـــــا

وإن أنس لا أنساك ليـــــلة جئتنـــــا
يزينك برادان : الملاحـــــة والصبـــا

وفاض فتـــــون من جبين معصـــب
فديت بعيني الجبين المعصبـــــــا

وقبل ذي الناي المخضب نايـــــــــه
فأسمعنا لحناً شجيـــــاً وأطربـــــا

هنالك أرسلت اليدين فكانتـــــــــا
على فرعك المنشور تاجـــاً مذهبـــا

وطافت بك الأنغام ســـــكرى تـــــأودت
فهزت لنا ردفـــــاً ونهدأ مدربـــــا

ففي هذه الأبيات استخدم الشاعر الألفاظ ذات الطابع الرومانسي

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٩ .

الذي بث فيها روح الحب والجمال والروعة ومن الألفاظ الموحية بذلك ، قوله :

النور ــ السحر ــ الملاحة ــ الصبا ــ شجياً وأطربا ــ الأنغام ــ هزت ــ ردفاً ــ نهداً ٠

هذه الكلمات تعبر في وضوح وسهولة عن إحساس عاشق ينفث ثورته العاطفية ٠

ونجد ألفاظاً تكشف عن طبيعة الشاعر الرومانسية ، حيث استخدم ألفاظاً تتصل بالطبيعة ، ويجعلها وسيلة فنية للإعراب عن عواطفه ٠

ومن ذلك قوله [١] :

وغـــــــزال يروضة ∴ ناطق الطرف هامس

وقوله [٢] :

كأن بياض الوجه والفرع حوله ∴ تبلج بـــــــدر في دجنه بيد

وقوله [٣] :

تفوق المها في الحسن طرفاً أو فعلة ∴ وتحكي ظبـــاء القاع لفتة جيد

فكأن الغزال ، والروضة ، البدر ، والظبية ، والمها ، هي الأدوات التي تهيء له كل الفرص التي تجعله يبوح بحبه لهذه المحبوبة للتشابه الذي بينهما ٠

وتدفقت لديه الألفاظ ذات الطابع الحسي حيث يعبر بها من خلال الوصف التفصيلي لأجزاء المحبوبة عن عشقه وولعه وولهه والكلمات التي تدل على ذلك في وصفه للراقصة في القصيدة السابقة ، ومن ذلك : " الجسم ــ

---

(١) الديوان ، ص ٢٨١ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٩ ٠

(٣) الديوان ، ص ٢٧٩ ٠

والساق ــ والنهد ــ والجبين ــ والبيت ــ والردف " ، ونجده أيضاً في التغزل المرأة والشكوى من صدها وهجرها استخدم ألفاظاً معبرة تماماً عن نفس الشاعر ووجدانه، ألفاظاً سيطرت عليها جو من العتامة والكآبة والألم، ألفاظاً تحكي أحزان الشاعر لهجران المحبوبة وصدها ، فراح يتجرع العذاب ويذوق آلام الفراق ، فمثلاً يقول في قصيدته " قلب ممزق " [١] :

لي في الهوى قلب حزين ∴ قد بـــات يدميه الأنين
عصـــف الغـــرام به كما ∴ عصفت رياح بالسفين
كتب الشـــقاء له وكـــــم ∴ سعدت قلوب العاشقين
قد فاض وجـــداً بينمـــــا ∴ قلب الأحبـــــة لا يلين
لا يشتكي ألـــم الهـــــوى ∴ قلـــبي بشكوته ضنين

فهذه الأبيات تحكي أحزان الشاعر ، وهناك ألفاظ عدة توحي بذلك منها " حزين ، يدميه ، الأنين ، عصف ، عصفت ، الشقاء ، لا يلين ، يشتكي ، ألم ، حنين " ٠

فمثلاً : حزين : توحي بمدى وقع المصيبة وهي هجران المحبوبة على قلب الشاعر ٠

وقوله :

ويدميه : توحي بمدى الألم والعذاب الذي أصاب قلب الشاعر ٠

والأنين : توحي بالصراخ والنواح من فراق المحبوبة ٠

وهكذا نجد أن الكلمات كلها تحمل مظاهر الحزن والألم ، وهذه الكلمات تعبر في وضوح عن إحساس الشاعر بالألم ٠

وفي قصيدته : لوعة وشجن [٢] :

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٦ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٤ ٠

لا تهجريــه بحــق مـــــن أولاك ∴ عــرش الجمـــال ، فإنه يهواك
وأراه قد ملك الغــرام زمامـــــه ∴ ما عاد يرغــب في الحياة سواك
أفلا رحمت من الهوى وسعــيره ∴ من بات من فــرط الصبابة باكي
صب أصاب فؤاده سهــم الهوى ∴ فهوى وجف الغصن من مضناك
ذاق الهوان ، وما برحــت خياله ∴ وبكى الدمــوع دماً ولن ينساك
عرف السبيل إلى البكاء ولم يكن ∴ يــدري الســبيل إلى البكا لولاك
برحته وجداً ، فبــات مســـــهداً ∴ يشكو الوجيــعة للذي أنشـــاك
ويبوح بالسر الدفـــــين لأنجــم ∴ باتـــــت لكربته بجفـــــن باك
يا درة السحر الحـــــلال وتاجه ∴ رفقــاً كفــاك ما جفوت كفاك
ماذا جنى حـــــــتى أراك تركته ∴ ظمـــآن في دنيا الهوى للقاك
طول القطيعة ليس في شرع الهوى ∴ يا من هجرت وطال حبل نواك

ففي هذه الأبيات نراه استخدم ألفاظاً معبرة عن الألم والإعياء الذي أصابه من صد وبعد وفراق المحبوبة ، وهذه الألفاظ لها علاقة حميمة بالحالة النفسية للشاعر ٠

ويلاحظ أن هذه الألفاظ تفجر صوراً حية عديدة من هذه المعاناة فنشعر ونحس بإحساس الشاعر لما أصابه من بأس وقلق وتمزق ، ومن الألفاظ الموضحة بذلك :

باكي : توحي بمدى معاناة الشاعر حتى أنه يصرح ويفيد بتوالي الأنين ٠

ذاق الهوان : توحي بشدة الألم حتى أذاقه الهوان ٠

مسهداً : توحي بأن الألم منعه من النوم وحرمه منه ٠

بجفن باك : توحي بشدة الألم الذي جعله يتكلم بدموعه دون أن يتحدث بلسانه ، فإن الدموع فضحته ٠

فالألفاظ في القصيدة تحكي عن قصة الشاعر مع الفتاة التي هجرته وصدته ، وهو يستحلفها بالله الذي أعطاها الجمال الأخاذ ألا تستمر في

هجرها ، وهذه الألفاظ تبعث طاقة تعبيرية عاطفية وحسية ، تنتمي إلى أفكار الشاعر وعاطفته ووجدانه ٠

فهاشم الرفاعي اختار لكل تجربة شعرية لقصائده الكلمة المعبرة ، فأصبحت اللغة مطابقة لإيقاع شعوره ، بحيث نرى في لغة الموضوع الذي يعالجه جانباً يتصل اتصالاً حميماً بتجربته النفسية ، فاستخدم في وصف المحبوبة الألفاظ الرومانسية التي تدل على ذلك ، وفي هجر المحبوبة وحزنه على فراقها الألفاظ التي تدل على ذلك ٠

وقوله [١] :

أيــن حبي وغــرامي ∴ في ربا الروض النضير
أين عشقي وهيــامي ∴ في حمى البــدر المنير
أين ضحكي وابتسامي ∴ للهوى عنــد القـــدير

وقوله [٢] :

ومشت إليه يزينها برد الصبا ∴ تختال كالرشأ الربيب الناعم
أحبك رغــم الأســى والدلال ∴ وأهــواك ناهيـــة آمــرة

وليس أدل على ذلك من قوله : " الغرام ــ يا حبيبي ــ الحلم ــ الجميل ــ حبي ــ غرامي ــ عشقي ــ هيامي ــ ضحكي ــ ابتسامي ــ الرشأ ــ أحبك ــ أهواك ــ عشقك ــ جمال " وهذه الكلمات تعبر في وضوح وسهولة عن إحساس عاشق متألم ينفث ثورته العاطفية لأن " اللغة لا ترمز إلى أفكار فحسب وإنما تكشف وتوضح عواطف مع ذلك ، فهي النظام الذي يحلل القيم العاطفية ، وعندما تظهر الوقائع التعبيرية محدودة تتعين لنا ملامحها العاطفية [٣] ٠

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٧٨ ٠

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٢٨٣ ٠

(٣) د ٠ سليمان العطار ، الأسلوبية علم وتاريخ ١٣٢ ع ٢ من مجلة فصول م ١ يناير سنة

ولقد حرص هاشم الرفاعي على اختيار الألفاظ والكلمات والتعبيرات التي تتلاءم مع مناخه النفسي وتبرز عذاباته وتحدد قسيماته الداخلية ، وتصف عشقه به وتبرز داء الهوى الذي ألم بابه ؛ موظفاً الألفاظ التي تلائم الجو النفسي وهي تفيض بالحسرة والألم ٠

وبذلك استخدم الشاعر الألفاظ ذات الطابع الرومانسي مثل قوله[١] :

وأراه قد ملك الغرام زمامه ∴ ما عاد يرغب في الحياة سواك

وقوله [٢] :

يا حبيبي قم فهذي ∴ ربوة الليل الأمين
رب ليل يا حبيبي ∴ مر كالحلم الجميل

وقد أذبل الهجران ناضر عودي ــ أسارع من وجد الليل شديد ــ سئمت السهد ليلاً ــ والبكا حباً ووجدا ــ قلب حزين ــ يدميه الأنين ــ كتب الشقاء ــ قلبي بشكوته ضنين ــ اللون دامس ــ العهد طامس ــ بسمة كذابه ــ أطوي في الحشا جمراً ــ وفجرت الأسى شعراً ٠

فهذه التعبيرات والألفاظ تخيرها الشاعر ليجسد معاناته حيث جاءت هذه التعبيرات والكلمات مواكبة لشعوره النفسي وملاءمة لمحك تجربته الشعرية ، حيث هذه الكلمات والتعبيرات تحمل شحنة انفعالية يفجرها الشاعر يوضعها في السياق الملائم لها ٠

فهذه التعبيرات والكلمات : البكا ــ سئمت ــ حزين ــ الشقاء ــ دامس ــ طامس : تخيرها الشاعر لأنها توحي بالحزن والألم وتتفجر منها طاقات اليأس وعذابات الهجر ، لذا جاءت هذه الألفاظ مواكبة لحالته

١٩٨١ م ٠

(١) الديوان ، ص ٢٧٤ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٧ ٠

النفسية وآلامه الروحية التي تنبئ عن تمزق وتشتت وقلق الشاعر ٠

ولذا انتقاها هاشم الرفاعي ببراعة لأنها تترجم عذابه وألمه وضيقه الشديد وتوحي بالحسرة الناجمة من هجر المحبوبة ٠

ومما يحمد لهاشم الرفاعي أنه وظف الأفعال الماضية والمضارعة في تآزر تام يكشف ويميط اللثام عن تراكماته الشعورية التي تمور في نفسه ولتواكب حده الصراع النفسي داخل وجدانه نحو قوله :

سقى الله عهداً ــ يشقين الخلي بنظرة ــ فيمسي بقلب في الغرام عميد ــ والقلب يقطر حسرة ــ ذقتما نار الهوى ــ وسئمت السهد ليلاً ــ جف الغصن من مضناك ــ هجرت وطال حبل نواك ــ فمضى وأدركه الذيول ــ عصف الغرام به ــ يشتكي ألم الهوى ــ تلاشى في دجى الهجر المرير ــ راح يبكي ــ وتداعت أضلعي واحترقت ٠

هذه الأفعال قد وظفت عبر أزمتها المختلفة حيث تآزرت في عزف سيمفونيته الفنية للتعبير عن تجربته الشعرية إزاء محبوبته في جميع قصائده ٠

ومما يلفت النظر أن شاعرنا استخدم الصيغ الاشتقاقية ووظفها توظيفاً يبرز العاطفة ، فاستخدم في شعره الغزلي اسم الفاعل والمفعول نحو قوله [١] :

وجفن كغمد السيف لا بل كحده ∴ إذا سل أصمى العــابد المترهبا

وقوله [٢] :

هنالك أرسلت اليدين فكانتا ∴ على فرعك المنشور تاجد مذهبا

وقوله [١] :

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٩ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٨٩ ٠

أفلا رحمت من الهوى وسعيره ∴ من بات من فرط الصبابة باكي

وقوله [٢] :

كم محب قدر واهباً ∴ منه بالدمـــــع السخن

وقوله [٣] :

إننا اليوم عرضة ∴ لرقيب مخـــالس

وقوله [٤] :

في لقاء محبـــب ∴ ونعيم من القبل

فاسم الفاعل : " العابد ــ باكي ــ مخالس ــ محب " ٠

جعلها وسائل أسلوبية معينة للتعبير عن مناخه النفسي وتراكماته الشعورية وأحاسيسه الشعرية وعن تجربته الشعرية ٠

وأيضاً استخدم التوكيد نحو قوله [٥] :

إن سهدي قد براني ٠

إن غصني جف زهره ٠

إنني قد عيل صبري

ونحو قوله [٦] :

إننا اليوم عرضة ∴ لرقيب مخالس

مستهلا أبياته بالتوكيد : إن سهدي ، إن غصني ، إنني قد عيل ، إننا اليوم ، وذلك تأكيداً لثورته العاطفية ٠

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٤ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٧ ٠

(٣) الديوان ، ص ٢٨١ ٠

(٤) الديوان ، ص ٢٩٨ ٠

(٥) الديوان ، ص ٢٧٢ ٠

(٦) الديوان ، ص ٢٨١ ٠

كما استخدم ألفاظاً تكشف عن طبيعة الشاعر الرومانسية ، ويجعلها وسيلة للإعراب عن عواطفه وخواطره نحو قوله [١] :

كأن بياض الوجــه والفــرع حــوله .·. تبلـــج بــدر في دجنـــة بيد

تفوق المها في الحسن طرفاً أو فعلة .·. وتحكي ظباء القـــاع لفتة جيد

ونحو قوله [٢] :

يؤنس البدر علينا .·. وحشة الليل الطويل

ونحو قوله [٣] :

بكرت إلى النهر الوديع الحالم .·. كالزهر أينع بالربيع الباسم

وقوله [٤] :

ومشت إليه يزينها برد الصبا .·. تختال كالرشأ الربيب الناعم

ونحو قوله [٥] :

وغزال بروضة .·. ناطق الطرف هامس

ونحو قوله [٦] :

ورثت لي الشمس في مغربها .·. بشيء من وجهها المفرورق

فكأن الشاعر استخدم هذه الألفاظ : " الشمس ــ البدر ــ الظبي ــ النهر ــ الليل ــ الرشأ " أي الغزال " ــ وغزال " ليبوح بحبه ؛ ويشير إلى

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٩ .

(٢) الديوان ، ص ٢٧٧ .

(٣) الديوان ، ص ٢٨٣ .

(٤) الديوان ، ص ٢٨٣ .

(٥) الديوان ، ص ٢٨١ .

(٦) الديوان ، ص ٢٩٢ .

مكانتها عنده ، لأنها ألفاظ ذات طابع حسي يعبر بها من خلال الوصف التفصيلي لأجزاء المرأة وجمالها وولعه وعشقه بها ، فهذه ألفاظ تنبئ بالرقة والرشاقة والجمال التي تناسب المرأة ٠

وخلال ما عرضناه من ألفاظ لهاشم الرفاعي على سبيل المثال لا الحصر نجد أن الشاعر صاحب صياغة شعرية قوية تتمثل في اختياره وانتقائه للألفاظ الدالة الموحية، والعبارات المعبرة، بحيث يكون هناك تلاءم بين اللفظ والمعنى وتلاءم بين اللفظ والحالة النفسية والوجدانية للشاعر ٠

بذلك استطاع هاشم الرفاعي أن يستقطب الألفاظ التي تترجم عذابه وألمه وضيقه وحبه وغرامه وتواكب حالته النفسية وآلامه الروحية حيث تحمل هذه الألفاظ شحنه انفعالية يفجرها الشاعر بوضعها في السياق الملائم لها ٠

ثالثـاً : التكـــرار :

يعد التكرار من أهم الوسائل الفنية التي تبدو في شعر الغزل عند هاشم الرفاعي ، والتكرار حلية بلاغية قديمة ، دأب على استغلالها شعراء كل العصور، وقليل من وفق فيها ، ومن الموفقين شاعرنا هاشم الرفاعي ، حيث جاء بالتكرار لإقرار المعنى وتثبيته في النفوس ، وهي ظاهرة بارزة في شعره خاصة في ألفاظه ومعانيه، فيعتري المفرد والمركب ، والمقاطع ، بل أحياناً يكرر الشطر من البيت أو البيت كاملاً في بعض قصائده المختلفة .

ولا ضير في أن يئول صنيع شاعرنا في هذا المجال بما يراه البلاغيون في التكرار من حيث تأكيد المعنى وتوضيحه .

وللتكرار في شعر الغزل عند هاشم الرفاعي تجليات مختلفة منها :

التكرار الاستهلالي :

هذا التكرار " يكشف عن فاعلية قادرة على منح النص الشعري بنية متسقة ، إذ أن كل تكرار من هذا النوع قادر على تجسيد الإحساس بالتسلسل والتتابع ، وهذا التتابع الشكلي يعين في إثارة التوقع لدى السامع ، وهذا التوقع من شأنه أن يجعل السامع أكثر تحفزاً لسماع الشاعر والانتباه إليه " (١) .

ويكون هذا التكرار في تكرار كلمة واحدة ، أو عبارة في أول كل بيت من مجموعة أبيات متتالية ، وقد ورد هذا اللون من التكرار في قصيدة " غزل " (٢) :

أنا في الناس مثلهم ∴ لي فؤاد ، ولي أمل
أنا أرض بمن لهـا ∴ سحر عينيك أو قل

---

(١) التكرار في الشعر الجاهلي دراسة أسلوبية " ربابعة موسى ، ص ١٥ .
(٢) الديوان ، ص ٢٩٧ .

فهذا التكرار في " أنا " يؤكد ويثبت ويثير التوقع لدى السامع ، لمشاركة الشاعر إحساسه الشعري ، حيث يبلور موقفه المتوتر الرافض لكل مظاهر التحكم في الشاعر والرضا التام، وبين الحضور الإيجابي للذات، لاقتران الضمير " أنا " بلفظه " مثلهم ، أرض " ، ومن هنا أصبح الضمير " أنا " يدل على القلق والحيرة وثبوت الذات ، ومن هنا تظهر أهمية الضمير لأن " الضمير يشكل على نحو من الأنحاء عالم الشاعر وحدود رؤيته له ، وإدراكه لأبعاده " [١] .

ومن التكرار الاستهلالي أيضاً تكرار صيغة السؤال في بداية البيت ، إذ تسهم هذه الصيغة في قوة الشحنة الإيحائية، وتستدرج القارئ إلى البحث عن الإجابات عن تلك الاستفهامات، وتثير الجدل والقلق والحيرة في نفس الشاعر والمتلقي ، يقول هاشم الرفاعي في قصيدته " دمع وحب " :

أين حبـــي وغـــرامي .·. في ربا الروض النضير
أين عشـــقي وهيامي .·. في حمى البـــدر المـــنير
أين ضحكي وابتسامي .·. للهوى عنـــد الغدير [٢]

تكرار هذه الأسئلة والاستفهامات في تلك القصيدة تدل على وجود صراعات نفسية لدى الشاعر في تلك المرحلة العاصفة بالانفعالات والأحزان عن ضياع حبه وعشقه وهيامه وتذكره بالماضي ، إذ يتكرر اسم الاستفهام " أين " أكثر من مرة فاتحاً المجال الدلالي بالسؤال عن حبه وغرامه وعشقه وهيامه ، وهذا يشعر المتلقي بتوتر الشاعر وانفعاله .

والأسئلة هنا لديها وظيفة وهي شحن الدفعة الشعورية التي تدخل في تكوين إحساس الشاعر، للتعبير عن بواطنه النفسية، التي توحي بالقلق

---

(١) عبد المطلب محمد ١٩٤٧ ــ قراءات أسلوبية في الشعر العربي الحديث ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ١٤٤ .

(٢) الديوان ، ص ١٧٧ .

المتسائل وتخبطه ، وهذه الأسئلة تخرج توجهاته النفسية الممزقة حزناً على حبه وغرامه وعشقه وهيامه ، وذلك لأن " الشعر تعبير عن المشاعر ورصد للأحاسيس والتراكمات الشعورية والشعيرات الحسية " (١) .

ومن تكراره للاستفهام قوله في قصيدة " بطولة حب " (٢) :

أيرضى الحب أن نحيا ∴ على هـــون إلى الأبد
أنبني عشنا في الغيـ ∴ ـد كما تستعبدوا ولدي
فلا تهنى إذن بالحـب ∴ بل شـدي بـه عضدي

وتكرار الاستفهام ــ هنا ــ يقوي النبرة ، والحركة الإيقاعية ، والوصول إلى لحظات التوتر الرافض لكل مظاهر العبودية ، وانصهار الشاعر في بوتقة العذاب ، حيث تحل هذه الأبيات في ظاهرها الرحمة ، وفي باطنها العذاب .

ومن التكرار الاستهلالي تكرار النداء " يا إله " الذي يحمل معنى الدعاء وذلك في قوله في قصيدة " غزل " (٣) :

يا إله الحب رفقاً ∴ قد وهى خيطي ورقا
يا إله الحب رفقاً ∴ هدني سكب الدموع

وأيضاً تكرار النداء في بداية كل مقطع من مقاطع القصيدة في" دمع وحب " (٤) :

يا حبيبي قم فهذي ∴ ربوة الليل الأمين
عندها تاريخ حب ∴ خالد رغـم السن

---

(١) أدب الرحالة د / محمود دياب محمود ، ص ١٢ .
(٢) الديوان ، ص ٢٩٤ .
(٣) إسماعيل عز الدين ١٩٧٨ ــ الشعر العربي المعاصر ــ ظواهره وقضاياه الفنية ــ دار الفكر العربي ، ص ١٦٦ .
(٤) الديوان ، ص ٢٧٢ .

* * *

يا لهـــا من ذكريات ∴ آت من عهد هوانا
كم كؤوس مترعات ∴ ها هنا الحب سقانا

* * *

أيها الدوح سلاماً ∴ على من قلب كئيب
قد مضى كل هناء ∴ لم يعد غـــير النحيب

وتكرار النداء في الأبيات السابقة يفتح فيضاً زمنياً يتتابع لا ينقضي وهذا الزمن يتجسد ، ويبرز الذكريات وحياة الإنسان الماضية ، التي تتسم بالصفاء والطهر والبراءة ، وسرعان ما يتغير صفا الإنسان وبراءته ، فيأتي النداء لإيقاظ الذهن عند المتلقي ، وليبين الصراع الأزلي بين الإنسان وماضيه ، ويجسد حالة من التوق الشديد والرغبة العارمة في بقاء الذكريات ، رمز الخير ، والحب ، والعطاء ، والسلام ٠

التكرار المقطعي :

وهذا تكرار بيت شعري أو أكثر في نهاية كل مقطع من مقاطع القصيدة ، وللتكرار المقطعي خفه وجمال لا يغفل أثرهما في النفس كما يقول الناقد الكبير إسماعيل عز الدين في كتابه الشعر العربي المعاصر " لأن للتكرار المقطعي خفة وجمالاً لا يخفيان ، ولا يغفل أثرهما في النفس حيث إن الفقرات الإيقاعية المتناسقة ، تشيع في القصيدة لمسات عاطفية وجدانية ، يفرغها إيقاع المفردات المكررة بشكل تصحبه الدهشة والمفاجأة [١] ٠

ونمثل له بقصيدة غزل لهاشم الرفاعي التي يقول فيها [٢] :

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٧ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٢ ٠

يا إله الحـــب رفقاً .·. قد وهى خيطي ورقا
وسئمت السهد ليلاً .·. إنني بالسهد أشقى
فسلام من جريح .·. قد قضى الأيام عشقا

* * *

يا إله الحـــب رفقاً .·. هدني سكب الدموع
وسئمت السهد ليلاً .·. والجوع بين الضلوع
فسلام من جريـــح .·. لم يذق طعم الهجوع

* * *

يا إله الحـــب رفقاً .·. مت هجراناً وصـــداً
وسئمت السهد ليلاً .·. والبكا حباً ووجـــداً
فسلام من جريـــح .·. عاهد الأحزان عهداً
في غرامي كم أعاني !
إن سهدي قد براني !
لم ينل غير الهوان !
يا إله الحب رفقاً .·. قد وهى خيطي ورقا
إنني قد عيل صبري
والنسيم الرطب يسري
قد ذوى وجداً لعمري
يا إله الحب رفقاً .·. قد وهى خيطي ورقا

* * *

إن غصني جف زهره
والندى ينهـــــل قطره
في غد يحفره قـــــبره
يا إله الحب رفقاً .·. قد وهى خيطي ورقا

* * *

يا إله الحب إنا ∴ قد بلينا فاصطبرنا
وبنـــار الحـــب بتنا ∴ في الهوى والقلب مضنى
فأرو للعشـــاق عنا ∴ وتـــــرحـــم إن قـــــبرنا
يا إله الحـــب رفقاً ∴ قد وهـــى خيطي ورقـــا
وسئمت السهد ليلاً ∴ إنني بالســـهد أشـــــقى
فسلام من جريـــح ∴ قد قضى الأيـــام عشـــقا

لقد كرر الشاعر البيت الشعري في نهاية كل مقطع ، ولذا سمي بالتكرار المقطعي الذي أعطى جرساً موسيقياً بتفريغ جديد للمعنى ، حيث نلحظ كثافة الدلالات ، وتعمق التصورات التي تعبر عن النفس الحزينة المقيدة بالشقاء والبلاء ، فيصرخ الشاعر داعياً الله للخلاص من هذه القيود، وهذا الصراخ محمل داخل نفس ممزقة ، وهذا ما يدل على أن التكرار المقطعي له دور بارز في هندسة المفردات حيث يدعو الله طالباً منه الرفق لأنه الخيط الذي يربط بين القلبين ، وقد ترجمت العيون ما في القلب حتى هده الدمع ، ومات بسبب الهجر والصد ، وكل ذلك بسبب تمزيق العلاقة بين القلبين العاشقين ٠

وفي هذه القصيدة أيضاً نجد تكرار التقسيم حيث كرر الشاعر عبارة في ختام وبداية كل مقطع ، وهذا التكرار يفيد فقد قوته وتفاعله في البنية الداخلية للقصيدة ، فتكرار جملة " يا إله الحب " في بداية كل مقطع ونهايته يدل على الحالة النفسية للشاعر وتتجلى الحقيقة عن مناخه النفسي وتضاريسه الشعورية التي يشعر بها وينقلها بدوره إلى المتلقي ، وهذا التكرار أيضاً خلق جرساً موسيقياً وإثارة لدى المتلقي ، وازدياد حدة التوتر من ألفاظه التي توحي بذلك مثل : " وهى ــ هدى ــ مت ٠٠٠ الخ " وترتيب هذه الألفاظ وتناميها عبر المسار الزمني للأفعال : حيث قطع حبل

الوداد بين العاشقين فبكى فهده البكاء ، فهجرته فمات من الهجر ، وهي نهاية مأساوية زادت من حدة التوتر ٠

وفي القصيدة ــ أيضاً ــ تكرار دائري حيث كرر عبارة أو جملة في كل بداية مقطع من مقاطع القصيدة ، وتكرار الكلم أو العبارة في بداية كل مقطع من القصيدة التي تعد المفتاح الأساسي للقصيدة ، فتكرار هذا المفتاح يكشف عن روح الشاعر ، وهواجسه الملحة ، وهذا واضح في تكرار كلمة " يا إله الحب " فهي تعطي إيحاءً وظلالاً ، ويتخطى الزمن ، وتخلق توازناً بين الألم في الواقع الحاضر ، وألم الزوال في المستقبل ، وألم الذكرى في الماضي ٠

ولا نغفل في هذه القصيدة نفسها تكرار الشاعر لقوله : " سئمت السهد ليلاً " أربع مرات وهذا التكرار يوحي بأن خيوط الوصل تمزقت بين الحبيبين وأمام إصرارها للهجر وعدم الوصل وجمع الشمل ، فشعر العاشق بالحزن الدفين وانصهر في بوتقة الأحزان ومزقته الآلام فلم يستطع النوم ولا النسيان ، فسئم السهد بسبب الحب الذي تطويه الضلوع ، والبكاء ، والشقاء ٠

ومن أجل ذلك كله نرى الشاعر في تلك القصيدة : نسج خيوطه الفنية حيث يحلق في عالم الذكريات ويرنو ببصره إلى الأيام الخوالي التي شهدت وصلاً بينه وبين المعشوقة ، حتى هبت عليهما ريح الفراق ، وكشر لهما الزمن عن أنيابه فعضهما الفراق بنابه فتمزقت القلوب وأصيبت الأرواح بجرح لا يندمل ٠

وبالتالي رصدت تلك القصيدة التراكمات الشعورية لدى الشاعر وأماطت اللثام عن عيون الحقيقة ٠

وتستطيع أن تقول من خلال ما سبق إن أغلب التكرار في شعر

هاشم الرفاعي يحمل دلالة ، ويراد من ورائه أهداف بلاغية ، وأن التكرار في شعره يتناسب مع وقفات التأمل في قصائده ، وهو يعمل على تمكين العلاقة بين النص والمتلقي ، ولذا استطاع الشاعر أن يوظفه حسب رؤيته وتأكيد موقفه ٠

وإذا نظرنا إلى التكرار في شعر الشاعر ــ هاشم الرفاعي ــ الغزلي نجد أن هذا التكرار اعترى المفرد والمركب ، والشطرة والبيت ، والشاعر هنا كرر دون أن يفسد المعنى الذي يقصده ، ومع ذلك فإن التكرار يؤدي إلى نوع من الإيقاع الداخلي المطلوب في أي عمل شعري ، فتلك الترددات التي تنجم من تكرار الكلمات ، أو الجمل ، تعين على ثراء الأسلوب بموسيقا خاصة تعمق إحساسنا بالجمال الذي يصاحبنا ونحن نقرأ الشعر ٠

واستخدم هاشم الرفاعي في أسلوبه أساليب إنشائية ، منها النداء الذي استخدمه استخداماً بلاغياً يخرج به عن أغراض النداء الحقيقية ، ويجيد استخدامه لهذا الأسلوب ، ويبدع في توظيفه ، ففي قوله [١] :

يا حبيبي قم فهذي ∴ ربوة الليل الأمين

فالنداء في قوله " يا حبيبي " نداء الغرض منه القرب والمحبة ٠

وقوله [٢] :

أيها الدوح كن لنا ∴ في الهدى خير حارس

النداء في قوله " أيها الدوح " نداء الغرض منه التمني وعدم تركهما بدون حراسة ٠

وقوله [١] :

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٧ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٨٢ ٠

يا بنت ذا الريف الجميل لقد مضى ∴ عهد ونحن على البعاد القائم

نداء الغرض منه الود والقرب والمحبة وعدم الفراق ٠

وقوله [٢] :

ليلى : رميت من العيون بأسهم ∴ وجعلت من قلب الفتى مرماك

نداء الغرض منه الود والمحبة والتمني بعدم البعد ، وحذف أداة النداء لقرب المحبوبة من نفسه ٠

واستخدم أيضاً هاشم الرفاعي أساليباً بلاغية أخرى منها أسلوب الاستفهام ، وذلك في قوله [٣] :

أجبني أين ميثاقك ؟

استفهام الغرض منه الإنكار ، مستنكراً عدم الإبقاء من المحبوب ٠

وقوله [٤] :

كم محب قد رواها ∴ منه بالدمع السخين

استفهام الغرض منه التعجب من مكان الربوة التي رواها العاشقون بالدمع ٠

وكذلك استخدم الأمر في قوله [٥] :

فادن مني الرضا ∴ يا مثير الهواجـــس

وارحم القلب إنه ∴ في الهوى جمر قابس

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٣ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٥ ٠

(٣) الديوان ، ص ٢٩٥ ٠

(٤) الديوان ، ص ٢٧٧ ٠

(٥) الديوان ، ص ٢٨١ ٠

" فادن ، وارحم " : أسلوب إنشائي الغرض منه التمني بعدم البعد حيث يتمنى القرب والرحمة لقلبه من المحبوب ٠

رابعاً : الصورة الشعرية :

مفهوم الصورة الشعرية :

الصورة الشعرية هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات التي ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكامنة في القصيدة، مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة ، والتركيب ، والإيقاع ، والحقيقة ، والمجاز، والترادف ، والتضاد ، والمقابلة ، والتجانس ، وغيرها من وسائل التعبير الفني ٠٠٠ والألفاظ والعبارات هي مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني أو يرسم بها صوره الشعرية (١) ٠

وعادة الصورة تستعمل للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحياناً للاستعمال الاستعاري ٠

والشعر العذب هو الشعر الذي يموج بالصورة الحافلة التي تشكل نواة القصيدة ، والقصيدة التي تفتقد الصورة البديعة الرائعة يكتنفها الموت والظلام ، ونجاح الصورة في قدرتها على تأدية مهمتها وهي نقل العاطفة والفكرة للشاعر إلى المتلقي ، وما تحققه من تناسب به حالة الفنان الداخلية والظاهرة ٠

والصورة الشعرية مع غيرها من الأدوات الفنية الأخرى هي التي تشكل القصيدة ، أي أن الشاعر يعتمد على الكلمة أساساً في تصوير ما بداخله ، نظراً لارتباط الصورة الفنية في الشعر بالحالة النفسية للأديب

---

(١) عبد القادر القط ــ الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ص ٣٩١ ، ط ٢ ، دار النهضة العربية ــ بيروت ، سنة ١٩٨١ م ٠

والموقف الذي حرك وأثار عاطفته ٠

وإذا نظرنا في الشعر الغزلي لهاشم الرفاعي نجد أنه يظل مرتبطاً على نحو ما ببعض المظاهر الفنية في التراث القديم ، وكثير من سمات الشعر العربي القديمة ظلت تبدو فيه بصورة ملموسة ٠

مصادر الصورة عن الشاعر هاشم الرفاعي :

كان هاشم الرفاعي يستمد صوره الشعرية من روافد متعددة ، فأحياناً كان يستمدها من الصور القديمة، وما تناوله الشعراء في عصورهم المختلفة ، وأحياناً يستمدها من الطبيعة ٠

١ ـ صور مستمدة من الموروث القديم :

يعتمد الشاعر إلى التقاط بعض مكونات الصورة القديمة أو نقلها كاملة أو إعادة خلقها من جديد لتلائم حالته النفسية وتخدم عمله الفني ، ومن هنا تنشأ المفارقات في الشعر العربي الحديث بين العصرية الغالبة ، وبعض السمات التقليدية التي ترجع إلى أقدم العصور في بعض الأحيان ، وقد تردد في تصوير الصحراء والإبل والآثار الدراسة في نتاج الشعراء الجاهليين والإسلاميين بصور مختلفة الأساليب ، وكان مصدراً لكثير من المجازات عندهم ، وقد وجدنا آثار هذه الصورة في شعرنا الحديث ٠

على الرغم من الزمن البعيد الذي يفصل بيننا وبين تلك العصور ، وقد يستعملها الشاعر الحديث بروح الحداثة ويوظفها لخدمة عمله الشعري فيكسبها أبعاداً موضوعية جديدة [١] ٠

ولنأخذ بعض النماذج من شعر هاشم الرفاعي الذي استمد منه

---

(١) د / العربي حسن درويش ، زكي مبارك شاعراً ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ م ، ص ٢٦٧ ٠

بعض صوره من الموروث القديم ٠

نحو قوله [١] :

كعاب يسر العين من حسن خطوها
تأود أعطاف ولين قيـــــــــود

كأن بياض الوجه والفرع حـــــوله
تبلج بـــدر في دجنة بيـــــــــد

تريك بساء الورد في وجناتهـــــا
وتبسم عن مثل الأقادح نضـــــيد

تفوق المها في الحسن طرفاً أو مقلة
وتحكي ظباء القاع لفتة جـــــــيد

من اللاء يشقين الخلى بنظـــــــــرة
فيمسي بقلب في الغرام عمـــــيد

ونحو قوله [٢] :

بكرت إلى النهـــــر الوديع الحـــــالم
كالزهر أينع بالربيع البـــــــاسم

ومشت إليه يزينها برد الصبـــــــــــا
تختال كالرشأ الربيـــــب الناعم

بين الظباء الخود من أترابهـــــــــا
تحكي تتابعهن عقد النـــــــاظم

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٩ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٨٣ ٠

المائسات لدى الشروق عواطفـــاً
كالبان داعبه رقيق نســـــائم

من خلال ما سبق يستخدم الشاعر : " الزهر ــ الصبا ــ الرشأ ــ الظباء وهي من الكلمات التي وردت في كثير من الصور والتشبيهات في الشعر الجاهلي ثم العصرين الأموي والعباسي ، على اختلاف في الدرجة والأسلوب لكنه وضعها في ثوب جديد ٠

يصف الشاعر المحبوبة في الأبيات السابقة في صوره شعرية رائعة جميلة حيث تصاعدت دقات قلبه بسبب ولعه بالمرأة ، وبسبب جمالها البارع وحسنها الأخاذ ، الذي يأسر الألباب ويستولي على العقول ، فيرصد لنا عواطفه الجياشة المتأججة الجذوة ، لذلك نجد شاعرنا يسوق لنا صورة شعرية ثرية بل لوحة فنية رائعة تعانق السموق حيث وصف المحبوبة وهي تتمايل في مشيها في لين ورقة كأنها غصن البان واستخدم كلمة كعاب التي نظر إليها مشرعاً عينه لتناسب مع مشيها وتمايلها ثم وصف وجهها وما حوله كأنه بدر أنار الصحراء ثم انتقل إلى عيونها فهي جميلة أخاذة كعيون المها ، وهذا الوصف والصورة الجميلة تتم على أن شاعر بارع في الوصف يجيد في التصوير يميل إلى الإغراق في الرومانسية حيث جاءت ألفاظه تقطر رقة وسحراً وتحلق في سماء الرومانسية رغم ما أصابه من حزن وألم في أغلب شعره ٠

صور مستمدة من الطبيعة :

لقد صور الشاعر الطبيعة في إطار تجسيد تجربة يصف بواسطته أحاسيس قد لا تمت إلى الطبيعة بصلة ، أو ربما يدمج في وصف الطبيعة قصة عاطفية مرتابة ، أو يخلع عليها هموم ، ويجعلها تشاركه آلامه وأحزانه ، فتكون الأوصاف التي يستعملها بمثابة عامل مساعد يعينه على تصوير ما يريد ، فالطبيعة في شعره كثيراً ما تجيء في مرتبة ثانوية من

الموضوع ، فتكون كالطلاء بالنسبة للجدار ، ولكن لا يمكن أن نستغني عنه وإلا فقدنا الإحساس بالجمال [١] .

ولقد استلهم هاشم الرفاعي مظاهر الجمال الطبيعي في شعره واستوحاها كلما أراد أن ينظم شعراً ، فقد وقف عند الجمال الطبيعي متفنناً في مزجه بالجمال والحسن الذي يعشقه فيقول [٢] :

وجسم كطيف النور يتضح فتنه ∴ مشياً فيه نيران الصبا فتلهبا
وطافت بك الأنغام سكرى تأودت ∴ فهزت لنا ردفاً ونهداً مدربـــا
وكشفت عن ساق وكسرت حاجباً ∴ وثنيت أعطافاً ورقصت منكبـــا

ونحو قوله :

فما الروض غشاه الربيع فزانه ∴ أريج زهور أو كضوع عود

ونحو قوله [٣] :

كعاب يسر العين من حسن خطوها
تأود أعطاف ولين قيـــــــــود

كأن بياض الوجه والفرع حـــــوله
تبلج بـــدر في دجنة بيـــــــــد

تريك بهاء الورد في وجناتهـــــا
وتبسم عن مثل الأقادح نضـــــيد

تفوق المها في الحسن طرفاً أو مقلة
وتحكي ظباء القاع لفتة جـــــــيد

---

(١) زكي مبارك شاعراً ، ص ٢٧٦ .
(٢) الديوان ، ص ٢٨٩ .
(٣) الديوان ، ص ٢٧٩ .

ونحو قوله [١] :

أين حـــبي وغـــرامي ∴ في ربا الروض النضير
أين عشـــقي وهيـــامي ∴ في حمى البدر المـــنير
أين ضحكي وابتسامي ∴ للهوى عند الغـــــدير

ونحو قوله [٢] :

بكرت إلى النهـــــر الوديع الحـــــالم
كالزهر أينع بالربيع البـــــــاسم

ومشت إليه يزينها برد الصبـــــــــــا
تختال كالرشأ الربيـــــب الناعم

بين الظباء الخود من أترابهـــــــــا
تحكي تتابعهن عقد النـــــــاظم

من خلال النماذج واللوحات الفنية السابقة نجد أن الشاعر لم يقصد وصف الطبيعة بذاتها إنما يقصد الحسن والجمال وخاصة حسن المرأة التي يعشقها ، فاستعار لها أوصافاً من الطبيعة فهي كطيف النور ، وإن مشت تتأجج نار الحب في قلبه من الدل في مشيتها وخاصة إذا هزت ردفاً ونهداً أو كشفت عن ساق أو مالت بحاجب ، أثارت غريزته ، أما وجهها فهو كالبدر المضيء ، وخديها كالورد ، وعينها تفوق عيون المها ، وجمالها يحاكي جمال الظباء ٠

كل هذه الأوصاف جعلت الصورة الشعرية عنده ثرية وخصبة حيث تميل إلى التجليات الخيالية المختلفة التي تتفق مع تجربته الشعرية الرومانسية التي ترصد مشاعره وأحاسيسه تجاه معشوقته ، ولذا اختار تلك

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٨ ٠
(٢) الديوان ، ص ٢٨٣ ٠

الألفاظ التي تثري تجربته الشعرية ، وتضفي عنصر الخيال على الصورة الشعرية مثل : كأن بياض الوجه تبلج بدر ، تريك بهاء الورد في وجناتها، تفوق المها في الحسن ، وتحكي الظباء ، وجسم كطيف النور ، وطافت بك الأنغام سكرى ٠

فهذه الصور نقلت الشحنة الوجدانية للشاعر، وأجلت الحقيقة وأماطت اللثام عما يتسم به الشاعر من خصوبة الخيال ، واتساع الثقافة ٠

وهذه اللوحات الفنية التي دبَّجها الشاعر في قصائده نرى فيها اللون ونسمع الصوت ، ونحس الحركة ٠

وكأنه قد أمسك ريشته فرسم صورة ولوحة فنية بارعة للعشق والشوق والجمال والغرام المتدفقة كالسيل ، والعواطف البشرية الجياشة الجامحة ٠

وبذلك استطاع الشاعر أن يخترق التراكمات الشعورية من خلال مفرداته ، وألفاظه ، وتراكيبه التي تقطر رقة وعذوبة وجمالاً ، فجمع في اللوحات الفنية جميع مقومات وجماليات الصورة حيث لون اللوحات بلون الإشراق والنور والفرحة والبهجة ، وهذه الألوان تثير الإحساس بالمتعة واللذة ، وأيضاً نسمع الصوت من مشية المحبوبة التي أخذت الألباب وسلبت العقول وهي تتمايل بجسمها الذي يتمايل مع الأنغام وكأنها سكرى ، وحركتها في تمايل خصرها وحركات نهدها وردفها ٠

وهذه الصفة على الرغم مما بها من دلالات نفسية على سيطرة التجربة على الشاعر إلا أنها وغيرها التي أوردها في ديوانه اليتيم خاصة في شعره الغزلي مازالت تقليدية ٠

الصورة البيانية :

وصفوة القول ، إن الصورة كانت عماد الشعر العربي ، وقد حاول

الشعراء أن يجعلوا هذه الصورة واضحة ، وهذا ما حملهم على نقل جزئياتها صوراً وألواناً وحركات ، وهم في الغالب لا يستقصون هذه الجزئيات استقصاءً تاماً منظماً ، ولكن ذلك لا يقلل من إجادتهم في لم أشتات هذه الجزئيات إلى بعضها ، وتكوين الصورة الكاملة إلى حد ما ، إجادة تضطرنا للوقوف عندها وقفة تأمل وإعجاب ٠

ولابد أن تكون هذه الصورة متباينة في إخراجها قوة وضعفاً ، لأن بعض الشعراء كان يقف عند حدود المرئيات منها ، وكان البعض الآخر يتجاوزها إلى ما أوحته إليه هذه الصور ٠

ومن الطبيعي أن تظهر معالم التكرار في هذه التشبيهات والصور ، لأن معظم الشعراء كانوا يدورون حول معان متعارف عليها ، وتشبيهات محددة لا يكادون يبتعدون عنها ، ففي حديثهم عن الديار نجدهم يشبهونها بالكتاب ، وإذا أرادوا أن يشبهوا آثارها شبهوها بالصحف أو الزخارف ، وكأنهم كانوا يقرأون في هذه الآثار المتبقية من الذكريات ما يقرأونه في الكتب ، وإذا رغب الشاعر في مقابلة صورة الأثر قابلها بالوشم [١] ٠

ونحن لا ننظر إلى المجاز على أنه مجرد جمع الأشياء المتشابهة للتوضيح أو التلميح ، أو غيره من الأسباب البلاغية ، إنما ننظر إلى المجاز على أنه جاء ليؤدي وظيفة معينة وفي النص ٠

وقد استخدم هاشم الرفاعي المجاز لأن غيره لا يصلح في مكانه ، فالأصل في التعبير الحقيقة ، ولما عجزت الحقيقة أن تفي بالمراد ، لجأ الشاعر إلى المجاز ليوضح فكرته وينقل الشعور إلى المتلقي ٠

لقد استخدم هاشم الرفاعي الصور البيانية ، ولكي نفهم فلسفته في بناء صوره لابد أن نمعن النظر في نماذج من شعره الغزلي الذي نحن

---

(١) وصف الطبيعة لإسماعيل أحمد شحاتة ، دار عمار سنة ١٩٨٧ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ ٠

بصدد ٠

فمثلاً قوله [١] :

وجفن كغمد الســـــيف ، لا بل كحده
إذا سل أصمـــى العابد المترهبـــا

وجسم كطيـــف النـــور ينضح فتنـــة
مشت فيه نيران الصـــبا فتلهبـــا

إنها صورة تنطق بالجمال والرقة والروعة ، حيث شبه جفن المحبوبة بغمد السيف ، إذا ما ظهر جمال عينها أصبح كالسيف الحاد القاطع الذي يقتل العابد المترهبن ، وذلك من شدة الجمال ، كل ذلك صوره على صورة التشبيه الذي يوحي بالجمال الأخاذ والحسن البارع ٠

وكذلك تصوير جسم الراقصة التي أحبها الشاعر بطيف النور الذي يفيض بالفتنة والروعة ، وهذا تشبيه يوحي بالخفة والرشاقة والإشراق ٠

ونحو قوله [٢] :

كأن بياض الوجه والفرع حـــــوله
تبلج بـــدر في دجنة بيـــــــــد

تفوق المها في الحسن طرفاً أو مقلة
وتحكي ظباء القاع لفتة جـــــيد

من اللاء يشقين الخلى بنظـــــــرة
فيمسي بقلب في الغرام عمـــيد

يوحي بالجمال والروعة والطلعة البهية، وهذا الوصف وصف نقلي،

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٩ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٩ ٠

يلتمس فيه الشاعر لفكرته صوراً ينقلها من الواقع المادي المحسوس ، تربط بينها وبين الفكرة علاقة محسوسة أيضاً ، ولكثرة دورانها على ألسنة الشعراء السابقين تكاد تكون مستهلكة ممجوجة ٠

وفي البيت الثاني : " تفوق المها في الحسن طرفاً " أو مقلة ، كناية عن جمال عيونها الذي يسلب الألباب ٠

وقوله: تحكي ظباء : حيث شبه المحبوبة في لفتة الجيد بأنها تشبه الظباء ، وهذا التشبيه يوحي بجمال الجيد وروعته الذي فاق كل شيء ٠

وانظر إلى الاستعارة في البيت الثالث : " بقلب في الغرام عميد " شبه القلب بإنسان يمرض ، وهذه الاستعارة توحي بمدى أثر وتمكن الحب في قلبه ٠

وهذه الصور أيضاً من الصور التي كثر دورانها على ألسنة الشعراء القدامى وهي تدل على تأثره بهم كغيره من الشعراء المحدثين ٠

ونحو قوله [١] :

ذاق الهوان ، وما برحت خياله ∴ وبكى الدموع دماً ولن ينساك

ويبوح بالسر الدفين لأنجـــم ∴ باتت لكربته بجفن بـــــاك

ذاق الهوان : استعارة مكنية توحي بمدى الألم والحزن والعذاب الذي أصاب الشاعر من صد وهجر المحبوبة ٠

بكى الدموع دماً : استعارة توحي بمدى العذاب الذي انصهر الشاعر في بوتقته حتى حول دموع عينه إلى دماء أصاب العين بمرض بسبب كثرة الدموع التي نزلت من عينه حزناً على فراق المحبوبة ٠

لأنجم باتت لكربته بجفن باك : استعارة توحي بمدى مشاركة

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٤ ٠

الطبيعة للشاعر في أحزانه ومدى ما يكمنه الشاعر في قلبه من حزن جعل الأنجم تبيت تبكي مشاركة إياه المشاعر وهذه قمة التصوير الجميل ٠

كل هذه الصور توحي بالحزن والألم والحيرة التي أصابت الشاعر بسبب فراق المحبوبة وتصاعدت تلك الأحاسيس في أعماق الشاعر حتى أحس بالانهيار التام وهي تناسب المناخ النفسي للشاعر وتضاريسه الوجدانية ٠

خامساً : الموسيقا :

الموسيقا هي " إحدى الفنون الجميلة التي سماها العرب بالآداب الرفيعة ، وهي الرسم والنحت والشعر والموسيقا ، بل ربما هي أهم الفنون عامة ، فهي شقيقة الشعر والنثر والمسرح والرسم والتصوير والسينما والرقص وما إلى ذلك [١] ٠

والموسيقا نوعان " موسيقا آلية وهي التي تصدر عن الآلات الموسيقية ، وموسيقا غنائية وهي التي تصدر عن الأصوات البشرية ٠

وللموسيقا أهمية كبيرة ، ودور عظيم في حياة الإنسان ، فهي التي تهز المشاعر ، وتوقظ الشعور، وتعبر عن الجمال بالأنغام والألحان التي تطرب الأسماع وتمنع الآذان حيث أنها تساعد على أداء الأعمال الشاقة المرهقة فنحن نرى العمال الذين يؤدون أعمالاً مرهقة يهونون على أنفسهم بالغناء المنسق ، والنغم المنظم ، واللحن المطرب كي يستطيعوا القيام بهذه الأعمال الصعبة ، ولو لم يكن للموسيقا من أثر لما استجابت النفوس لها هذه الاستجابة التي تهون عليها الصعب ، والتي تدل على أن الموسيقا يترادف أنفاسها واتساق ألحانها أصل من أصول الحياة [٢] ٠

---

(١) عبد الحميد توفيق زكي ٠ الموسيقا علم وفن ولغة ، ص ٨ بدون ٠

(٢) العوضي الوكيل الشعر بين الجمود والتطور ، ص ٣٣ ، بدون ٠

وموسيقا الشعر أهم عناصر النص الأدبي الخاصة بالشعر فأبرز ما يميز الشعر عن غيره هو موسيقاه الشعرية التي تثير النفوس وتحرك العواطف والأحاسيس ، وتؤجج المشاعر ، " فالشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة " .

ويعمل الشعر على إثارة الشعور ، وتحيرك الوجدان ، أو بعث الإحساس بالجمال ، وفي سبيل ذلك يستخدم وسائل معينة في الصياغة ، ومن هذه الوسائل العنصر الموسيقي .

ولابد للشعر من موسيقا لأن الموسيقا من أبرز علامات الشعر ، وهي التي تميزه عن الكلام المعتاد ، وعن غيره من الفنون الأدبية ، وقوام هذا العنصر أو جوهره اللغة ، بها يستخرج الشاعر ما تعجز دلالة الألفاظ في ذاتها عن استخراجه من النفس البشرية كاللون العاطفي للفكرة ، أو ظلال المعاني التي تفجر الألفاظ في ذاتها عن التعبير عنها ، بينما يستطيع النغم أو على الأقل الإيماء به " [١] .

وهنا يقول د / محمد مندور ... الموسيقا الشعرية إحدى الوسائل المرهفة التي تملكها اللغة للتعبير عن ظلال المعاني وألوانها بالإضافة إلى دلالة الألفاظ والتراكيب اللغوية [٢] .

فالموسيقا في الشعر ليست وسيلة إطراب فحسب ، إنما هي طاقة تعبيرية تنقل أجواء القصيدة إلى المتلقي .

وظلال المعاني هي موحياتها وما تضيفه على المتلقي من حالات

---

(١) زكي مبارك شاعراً د / العربي حسن درويش ، الهيئة العامة للكتاب ، ط سنة ١٩٨٦م، ص ٢٤ .

(٢) الأدب وفنونه لمحمد مندور ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ط سنة ١٩٦١ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

نفسية ، وبذلك نستطيع أن نقيم صياغة الشعر على أمرين هما الوزن والقافية من ناحية ، والإيقاع من ناحية أخرى ٠

١ـ الموسيقا الخارجية :

وهي التي تقوم على الوزن والقافية ، وهما العاملان الأساسيان في بناء الموسيقا الخارجية للشعر ، ولم يعرف الشعر ناقد قديم إلا وذكر الوزن والقافية تمييزاً له عن النثر ومن الوزن والقافية نشأت عنهما وحدة النغمة والإيقاع ٠

١ـ الوزن :

الوزن ركن من أركان الشعر ودعامة من دعائم الموسيقا ، فإن يكن الشعر أسرع تطوراً في موضوعاته ومعانيه وأكثر منه في أشكاله ، إلا أن أوزان الشعر العربي أخذت في التطور منذ أواخر العصر الأموي متأثرة بموجات الغناء التي كانت تنداح في خضم الجانب اللاهي من الحياة في مكة والمدينة ، ومن ثم امتد الأثر إلى الشعر في القرن الثاني والعصر العباسي عامة [١] ٠

وهو مجموع التفغيلات التي يتألف منها البحر الشعري ، وقد استطاع الخليل بن أحمد أن يحدد بحور الشعر العربي في خمسة عشر بحراً ثم زاد عليه تلميذه الأخفش بحراً آخر سماه المتدارك ، وبذا صارت بحور الشعر العربي ستة عشر بحراً ، وقد استطاع الخليل بموهبته الفذة ، أن يحصر هذه البحور في مجموعات أطلق عليها الدوائر العروضية ، كل مجموعة تجمع عدداً من الأبحر المتشابهة والمتقاربة في الموسيقا والنغم

---

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثالث الهجري ، د ٠ يوسف حسين بكار ، دار الأندلس ، ص ٣٣٠ ٠

قد تطول ، وقد تقصر ، فالأوزان الطوال كالطويل ، والبسيط ، والكامل ، وهي التي يجد فيها الشاعر ميداناً فسيحاً ومجالاً رحباً لتحليل عواطفه تحليلاً دقيقاً فيه استقصاء وعمق ، ويجد أيضاً في اتساع مقاطعها متنفساً لمشاعره الصاخبة التي لا تنهض بها قصار الأوزان ، ولذا كانت البحور الغالبة في الأغراض القديمة هي البحور الطوال ، ولا يعني هذا خلو الأبحر القصار من الإيقاع ، فالإيقاع أساسها ، ويختلف الإيقاع بين البحور وباختلاف تفعيلاتها (١) .

والوزن مقيد بأبحر ثابتة يصعب تغييرها أو التخلص منها ، ولذا يقول إبراهيم أنيس : " التجديد في الأوزان نادر وتطورها بطئ تمر عليها القرون والأجيال دون أن يصيبها ما يسترعي الانتباه ، أو يلفت النظر ، وذلك لأن ألفة الوزن وشيوعه في البيئة اللغوية يتطلب زمناً طويلاً وإنتاجاً شعرياً كثيراً ، حتى يعتاد جمهور كبير من السامعين ويستسيغوا ما فيه من نغم وموسيقا (٢) .

والعلاقة بين الوزن والمعنى تضاربت فيها الآراء واختلف فيه كثير من النقاد القدامى والمحدثين وتصوروا أن بحوراً بعينها تلائم أغراضاً بذاتها ، كما تصور البعض منهم أن اختيار الشاعر لوزن قصيدة ما ينم عن وعي مسبق قبل البدء في العملية الإبداعية (٣) ، ومن القدماء الذين فضلوا القول في هذه القضية ابن طبا طبا (٤) ، وأبو هلال العسكري (٥) ، وحازم

---

(١) د / أحمد محمد الأعرج في دراسة النقد الأدبي ، بدون ، ص ٢٠ .

(٢) د / إبراهيم أنيس، موسيقا الشعر ط ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٨، ص ١٨ .

(٣) زكي مبارك شاعرنا ، د . العربي حسن درويش ، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ ، ص ٢٤٤ .

(٤) عيار الشعر ١٩، تحقيق طه الحاجري ، ومحمد زغلول سلام ، القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٥) الصناعتين ١٣٩ ط / علي محمد البجادي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ــ القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

القرطاجني [١] .

ومن المحدثين الذين وقفوا عند العلاقة بين الوزن والمعنى ناصر الدين الأسد [٢] ، وأحمد الشايب [٣] .

وعلى سبيل التمثيل يقول شكري عياد إن " دراسة الإيقاع في الشعر بمعزل عن المعنى محاولة مشكوك في قيمتها ، فالمعنى هو بلا شك العامل المهيمن في اختيار الشاعر للمؤثرات الإيقاعية التي يحدثها ، والإيقاع ليس شيئاً فيزيائياً ، إنما هو في الواقع إيقاع للنشاط النفسي الذي من خلاله ندرك لا صوت للكلمة فقط بل ما فيها من معنى وشعور [٤] .

ويقول إبراهيم أنيس : فحالة الشعر النفسية في الفرح غيرها في الحزن واليأس ، ولابد أن تتغير نغمة الإنشاء تبعاً للحالة النفسية ، فهي عند الفرح والسرور متلهفة مرتفعة ، وهي في اليأس والحزن بطيئة حاسمة [٥] .

فالحالة النفسية لهاشم الرفاعي حين كان يتغزل غير الحالة النفسية التي تملكت أصحاب الغزل القدامى منهم والمحدثين ، فشعور الشاعر إذن وأن توقف إلى حد ما على موضوع الشعر يختلف باختلاف الشعراء ، واختلاف تأثرهم بعوامل أخرى ، " فهاشم الرفاعي " في شعره الذي نحن بصدده لم يحدد بحراً لغرض معين ، إنما حسب حالته النفسية فقد تنوعت الأوزان في أغراضه ما بين طويلة وقصيرة ومتوسطة ، فجعل تجربته

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٢٥٨ ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه ــ تونس سنة ١٩٦٦ م .

(٢) القيان والغناء ١٩٥ ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٩ م .

(٣) أصول النقد الأدبي ٣٢٣ ــ مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٦٤ م .

(٤) موسيقا الشعر العربي ١٥٤ ط ٢ ، دار المعرفة سنة ١٩٧٨ م .

(٥) موسيقا الشعر ، ص ١٧٥ .

الشعرية مطلقة لا تتقيد بوزن معين ٠

ومن خلال ما سبق نجد أن هاشم الرفاعي لم يقل غزلاً إلا في أربعة بحور من بينها واحد مجزوء الرمل :

٣ .القافية :

ليس هناك شك في أن القافية إحدى ركائز الموسيقا في الشعر ، فهي برنينها وجرسها المتكرر تثير فينا المتعة والجمال ، فهي التي تدخل على الشعر الروعة ، لأن الوقفات في القافية تريح القارئ ، وتبرز اللفظة الموقوف عليها معنى وموسيقا ٠

ونتساءل هل التزم هاشم الرفاعي بالقافية ذات الروي الواحد أم أنه نوع فيها ، وهل اعتمد على القافية الموحدة أم على المقطعات وعلى غيرها من المزدوج والمربع

الحقيقة أن هاشم الرفاعي التزم في شعره بالقالب الموحد ، وهذا أمر طبيعي نتيجة لثقافته العربية والتزامه بالموروث ، وقد نظم في القالب الموحد الذي التزم بالقافية الموحدة الروي جزءاً كبير من شعره إلا القليل٠

ومن هذا الضرب الذي التزم فيه الشاعر بالقافية الموحدة الروي قصيدته لوعة وشجن ، وقد بلغت ستة عشر بيتاً ، والتي مطلعها :

لا تهجريه بحق من أولاك ∴ عرش الجمال ، فإنه يهواك

وقصيدته التي غنى بها للربيع والتي بلغت حوالي خمسة وعشرين بيتاً ، ومطلعها [١] :

من معين لبائس ∴ موجع القلب يائس

وقصيدته التي غنى فيها لبنت الريف والتي بلغت ستة عشر بيتاً ،

---

(١) الديوان ، ص ٢٨١ ٠

ومطلعها [١] :

بكرت إلى النهر الوديع الحالم ∴ كالزهر أينع بالربيع الباسم

وقصيدته التي تحدث فيها عن شم النسيم وفضله على الطبيعة وما فيه من رومانسية والتي بلغت عشرين بيتاً ومطلعها [٢] :

وغزال بروضه ∴ ناطق الطرف هامس

وكذلك قصيدته غزل حيث تغزل فيها بمحبوبته والتي بلغت سبعة وعشرين بيتاً ومطلعها [٣] :

قالت العين لي أجل ∴ ثم أطرقت في خجل

ومن هذا الضرب أيضاً قصيدته " أنشودة عاشق " والتي بلغت سبعة وعشرين بيتاً ، ومطلعها [٤] :

ليالينا عند الخميلة عودي ∴ فقد أذبل الهجران ناضر عودي

وعلى هذا فالقافية تشكل عنصراً هاماً من عناصر الإيقاع الشعري لما تضيفه على التعبير الشعري من قيمة موسيقية خاصة نتيجة لتكرار عدة أصوات في أواخر الأبيات في القصيدة ، وهنا يقول إبراهيم أنيس : " إن تكرار القافية هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقا الشعرية ، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن ، وإن التزام حركة بعينها قبل الروي مما يكسب

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٣ .

(٢) الديوان ، ص ٢٨٦ .

(٣) الديوان ، ص ٢٩٧ .

(٤) الديوان ، ص ٢٧٩ .

القافية نغماً وموسيقا [١] .

فعلى قدر ما يكرر من أصوات في أواخر الأبيات يكون جمال الموسيقا وروعة الإيقاع .

وقد استخدم هاشم الرفاعي المقاطع كما في قصيدته غزل قال فيها [٢] :

يا إله الحـــب رفقاً ∴ قد وهى خيطي ورقـــا
وسئمت السهد ليلاً ∴ إنني بالســـهد أشقى
فســـلام من جريح ∴ قد قضى الأيام عشقا

ثم قال :

يا إله الحـــب رفقاً ∴ هدني سكب الدموع
وسئمت السهد ليلاً ∴ والجوع بين الضلوع
فسلام من جريـــح ∴ لم يذق طعم الهجوع

ثم قال :

يا إله الحـــب رفقاً ∴ مت هجراناً وصـــداً
وسئمت السهد ليلاً ∴ والبكا حباً ووجـــداً
فسلام من جريـــح ∴ عاهد الأحزان عهداً

في غرامي كم أعاني !
إن سهدي قد براني !
لم ينل غير الهوان !

ثم قال :

إن غصني جف زهره

---

(١) موسيقى الشعر ، إبراهيم أنيس ، ص ٢٤٦ .
(٢) الديوان ، ص ٢٧٢ .

والندى ينهـــل قطره
في غد يحفره قـــبره
يا إله الحب رفقاً ∴ قد وهى خيطي ورقا

وفي قصيدة مطولة قال فيها [١] :

تسائلني : مــن الجاني ∴ عـــلى قــلبي ووجــداني
ومن منـــا الذي أغفـــ ∴ ـــل عن قصد هوى الثاني
سلوت ولست من تجـــ ∴ ـــزيك سلـــوانا بســلوان
وأصفيت الهوى أخرى ∴ فقلها : لســـت تهــواني

* * *

نســيت لقاءنـــــا بالرو ∴ ض يوم زرعته وحسبا
وكنت تصــب في أذنـــي ∴ حديثـــا ســاحراً عذابا
وتهمـــس بالأماني البيـــ ∴ ـــض شعراً أيقظ القلبا
فرحـــت أعانــق الأزهــا ∴ ر والأنســـامِ والعشبا
ولكنـــي رأيـــت القيـــ ∴ ـــد قــد أدمى لي القدما
وأغـــلالاً تلـــف يــدي ∴ تعذبنـــي ، تســيل دما
وأفئـــدة تنـــادي الفجـــ ∴ ـــر ثم تعــانق الظلما
فصغت ـ كما رأيت ـ الشعـــ ∴ ـــر ينضح لفظــه ألما
فإن لم تسمـــعي مـــني ∴ نشيداً حـــالم الغــزل
ولم تجـــدي ســـوى أنا ∴ ت جرح غير مندمـــل
فلا تجـــري وراء الوهـــ ∴ ـــم وانتصري على الملل
وكونـــي مثلمـــا عود ∴ تني مشـــبوبة الأمل

واستخدم هذا الضرب أيضاً في قصيدته " دمع وحب " وغيرها ، فلكل مقطع من المقاطع السابقة قافية تختلف عن الأخرى ، وهنا تنوعت

---

(١) الديوان ، ص ٢٩٤ .

القافية وتنوعها زاد الموسيقى جمالاً وروعة ، وجعل الشعر قريباً إلى القلوب ، محبب إلى الأسماع ٠

وقد استخدم أيضاً التصريع فقافية الشطر الأول هي نفس قافية الشطر الثاني ، وكثر ذلك في شعره خاصة في أوائل القصائد مثل قوله [١] :

تسائلني : من الجاني ∴ على قلبي ووجداني

وقوله [٢] :

من معين لبائس ∴ موجع القلب يائس

وقوله [٣] :

لياليا عند الخميلة عودي ∴ فقد أذبل الهجران ناضر عودي

وقوله [٤] :

لست أنساك وإن لم نلتق ∴ مذ تساقينا الهوى في زورق

وقوله [٥] :

بكرت إلى النهر الوديع الحالم ∴ كالزهر أينع بالربيع الباسم

وقوله [٦] :

رويدك أيتها السائرة ∴ على سندس خضر الناضرة

وقوله [٧] :

ملء عينيك دعوة للنزال ∴ وبجفنيك فإنك من نصال

واستخدم الشاعر هاشم الرفاعي الرباعيات ، إلا أنه لم يسلك فيها

---

(١) الديوان ، ص ٢٩٤ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٨١ ٠

(٣) الديوان ، ص ٢٧٩ ٠

(٤) الديوان ، ص ٢٩٢ ٠

(٥) الديوان ، ص ٢٨٣ ٠

(٦) الديوان ، ص ٢٨٥ ٠

(٧) الديوان ، ص ٢٨٨ ٠

طريقة واحدة ، فأحياناً تكون الأشطر الأربع موحدة القافية ، مثل قوله [١] :

فما هما منك سوى نظرة ∴ من العين في لقنه ساحرة
وعدت أسير عيون المهاة ∴ فواهـــا لمقلتك القاهـــــرة

ومثل قوله [٢] :

يا إله الحـــب إنا ∴ قد بلينا فاصطبرنا
فار وللعشاق عنا ∴ وترحـــم إن قبرنا

وأحياناً تتحد الشطرتان الأولى والثالثة في قافية بينما تتحد الثانية مع الرابعة في قافية مثل قوله [٣] :

يا لهـــا مـــن ذكريـــات ∴ آه من عهد هوانا
كم كؤوس متـــــرعات ∴ ها هنا الحب سقانا

وقوله [٤] :

رب ليل يا حبيبي ∴ مر كالحلم الجمـــيل
فيه سرنا ويميني ∴ لف بالخصر النحيل

وقوله :

أين حبي وغرامي ∴ في ربا الروض النضير
أين عشقي وهيامي ∴ في حمى البـــدر المنير

ويقول شكري عياد أن مبدأ التنويع كثيراً ما يدفع كلاً من الموسيقى والشاعر إلى الانتقال من مفتاح إلى مفتاح في القطعة الواحدة ، وذلك أن تأثير اللحن يرجع إلى الشعور بالشوق لعودة المفتاح ، وأن استخدام

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٥ .
(٢) الديوان ، ص ٢٧٣ .
(٣) الديوان ، ص ٢٧٧ .
(٤) الديوان ، ص ٢٧٧ .

مفتاحين للحن الواحد يضاعف هذا الشوق [١] .

فحين نسمع مثلاً هذين البيتين من مطلع قصيدة هاشم الرفاعي :

أين حبي وغرامي ∴ في ربا الروض النضير

أين عشقي وهيامي ∴ في حمى البـــدر المنير

فإن الياء في" غرامي " تجعلنا نتشوق لعودتها في نهاية الشطر التالي ، فإذا أخلفت قافية هذا الشطر ظننا أن هناك قلقاً ، ثم تأتي قافية الشطر الأول من البيت الثاني موافقة لنظيرتها في البيت الأول فنشعر بلذة لهذه الموافقة ، ولكن قافية الشطر الثاني من البيت الأول تظل معلقة حتى تعود إلينا بعد القافية الأولى ، وهذا يمتع الأذن بلذة النغم والموسيقا .

أما إذا نظرنا إلى حرف الروي نجده قد استخدم الحروف الآتية : النون ، والكاف ، والسين ، والميم ، والهاء ، واللام ، والقاف ، والباء ، والدال ، وكلها حروف تدل على العذابات والآهات التي عانى منها الشاعر خلال عشقه ، وذلك لتناسب حالته .

فمثلاً نراه في قصيدة " قلب ممزق " اختار حرف الروي النون الساكنة .

لي في الهوى قلب حزين ∴ قد بات يدميه الأنين

وهذه القافية تدل على إنسان لاهث مرهق من كثرة الألم ، وهي ساكنة لقصر نفسه من شدة العذاب الذي يعانيه قلبه الممزق ، وهذا يناسب جو القصيدة المشحون ألماً وحزناً .

وهذا الروي منسجم انسجاماً كلياً مع المعاني التي رصدها الشاعر في قصيدته ، والتي تنقل ما في وجدانه وما يضطرم به نفسه ومنها :

---

(١) موسيقى الشعر العربي ، ص ١٢٨ .

" يدميه ــ عصفت ــ الشقاء ــ الضنين ــ ألم " وكلها كلمات تتناسب تماماً مع الموضوع ٠

وفي قصيدته " من أغنيات الربيع " يقول [١] ٠

من معين لبائس ∴ موجع القلب يائس
قد تبدين في الري ∴ كالدمي والعرائس

فنجد السين وهو من الحروف المهموسة ناسبت حالة الشاعر الذي يتحدث عن حبه ووجدانه الذي ينم عن الحزن والفرح ، وهذا الروي يتناسب مع المعاني التي رصدها الشاعر في القصيدة ، والتي تترجم مما في وجدانه ليشاركه المتلقي والسامع مثل : " يائس ــ دامي ــ عرائس " فهذا وجدان حزين ألبسه الشاعر عباءة الفرح ٠

وإذا قرأنا قصيدته [٢] :

قالت العين لي أجل ∴ ثم أطرقت في خجل
أنت أحببتني ولـم ∴ أدع الحـب يكتمـل
لا تقـولي : تدلـل ∴ وغرور من الرجـل
أنا في الناس مثلهم ∴ لي فؤاد ، ولي أمل

تجد قافية اللام هادئة تتناسب وحالة الحب التي وقع فيها ، ورقة الفتاة التي عشقها ، مع إكساب القصيدة نغمة موسيقية رائعة ، وفي قصيدته " لوحة وشجن " [٣] :

لا تهجريـه بحـق مـن أولاك ∴ عـرش الجمـال ، فإنه يهواك
وأراه قد ملك الغـرام زمانـه ∴ ما عاد يرغب في الحياة سواك

---

(١) الديوان ، ص ٢٨١ ٠
(٢) الديوان ، ص ٢٩٧ ٠
(٣) الديوان ، ص ٢٧٤ ٠

أفلا رحمت من الهوى وسعيره ∴ من بان من فرط الصبابة باكي
ذاق الهوان ، وما برحت خياله ∴ وبكى الدمـــوع دماً ولن ينساك

يتكئ الشاعر على الكاف في تجسيد معاناته من عذابات الحب وألم الهجر والفراق وهو يتوسل إليها ، فالكاف المكسورة هنا تتناسب تناسباً تاماً مع حالته النفسية ، والقلب المعذب الكسير ٠

د ـ المحسنات البديعية :

ومما يلاحظ على الموسيقا الخارجية عند هاشم الرفاعي استخدامه للمحسنات البديعية في أثناء شعره الغزلي ، بل يضيف إليها حشداً من الألفاظ على شكل جناس وطباق ٠

١ ـ الجناس :

استخدم الجناس في قوله [١] :

وفاض فتون من جبين معصب ∴ فديت بعيني الجبين المعصبا

فنرى الشاعر جانس بين (جبين ــ والجبين) (وكذل معصب والمعصبا) ٠

وقوله :

أجبني ٠٠ أين ميثا ∴ قك ؟ إني حنت ميثاقي

فالجناس ما بين (ميثاقك ، وميثاقي) ٠

٢ ـ الثنائيات الضدية :

واستخدم الشاعر أيضاً الثنائيات الضدية في قوله [٢] :

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٩ ٠
(٢) الديوان ، ص ٢٩١ ٠

وفتاك الذي جلست إليه ∴ جلسات قصيرة وطويلة ٠

وقوله [١] :

فإن الهوى داء إذا ملك الفتى ∴ أمسى وأضحى وما من قتله بد

وقوله [٢] :

كتب الشفاء له وكم ∴ سعدت قلوب العاشقين

هذه الثنائيات التي استخدمها الشاعر أدت إلى بلورة تجربته الشعرية ، والتأكيد على ما يهدف إليه من معنى حتى لو تجاوز التلميح إلى التصريح ، وهذا أمر واضح في تلك الثنائيات السابقة ٠

والحقيقة أن الشاعر استخدم الثنائيات المتقابلة ما بين : (قصيرة وطويلة) ، (أمسى وأضحى) ، (الشقا والسعادة) استخداماً دقيقاً أماط اللثام وكشف النقاب وجلى الحقيقة عن المناخ النفسي له والحيرة التي سيطرت عليه في كل قصائده من هجران وصد المحبوبة الذي لم يعرف له سبباً ٠

وكذلك التضاد يوضح المعنى ويقويه ويؤكده

ومن خلال ما سبق نجد أن الصورة الشعرية لدى شاعرنا هاشم الرفاعي حافلة وزاخرة ومستوفاة لعناصر الصورة الشعرية ٠

الموسيقا الداخلية :

وواضح هنا أن الموسيقا المرادة ليست قاصرة على الوزن وحده ، وإنما تتعداه إلى الإيقاع بصفة عامة ، الإيقاع النابع من النغمة المفردة في

---

(١) الديوان ، ص ٢٧١ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٦ ٠

الكلمة ، أو النغمة المترددة من الكلمات داخل الجملة ، وهو ما يطلق عليه الموسيقى الخفية فهي الأقدر والأحكم على ضبط الإيقاع وتنظيم النغم ، وإعطائه التمايز والتغاير المطلوب حسب التجربة والمعنى المضمن فيها بغض النظر عن البحر العروضي ، فقد يشتمل البيت الواحد على تضمين متباين بين السرعة والبطء مع أن الوزن العروضي يتحد [١] .

وهي التي تقوم على جرس الألفاظ وإيحاءاتها الخاصة ونظمها في صورة صوتية تتناسب مع المعنى وهي من الظواهر الفنية الواضحة في الشعر وهي التي تنساب في ثنايا القصيدة وينبض بها كل لفظ من ألفاظها ، ومرد هذه الموسيقا إلى " تلك الروح السارية في أجزاء القصيدة " كلها ، وانطلاقها معها في جو معبر تعبيراً صادقاً تحس أثره وتلمسه لمساً قوياً متجاوباً مع المعنى الذي يريده الشاعر ، وهذه الحالة النفسية السارية في ثنايا القصيدة كلها هي التي يسميها النقاد بالموسيقا الخفية ، وهذه هي التي تدفع الشاعر إلى أن يختار من الألفاظ ما يوحي إيحاءً صادقاً بما يريد التعبير عنه في صدق وقوة ، حتى لتحس وأنت تستمع إلى القصيدة أو تقرؤها إنك أمام بناء فني متكامل قد وضع فيه الشاعر كل شيء في موضعه في دقة وإحكام على يد فنان ماهر يدرك أسرار الجمال ويعرف مواطنه ، فتشعر كأنك أمام لحن موسيقي متناسق النغم ينساب إلى النفس فيأخذ بمجامعها ، وهذا التناسق الفني المتنوع يحسب المعنى الذي يريد الشاعر أن يعبر فيه [٢] .

وهي التي تقوم على جرس الألفاظ وإيحاءاتها وهي التي تتمثل في

---

(١) كتاب الظاهرة الأدبية في شعر الخوارج أ . د / عبد اللاه محمود حسن محروس ، مطبعة الأمانة ط ١ ، سنة ١٩٨٨ م .

(٢) محرم شاعر العروبة والإسلام ، محمد إبراهيم الجيوشي ، ط ١ دار العروبة ، سنة ١٩٦١ ، ص ٢٥٩ .

اختيار ألفاظ خاصة تعبر عن انفعالات خاصة للشاعر وحالته النفسية التي تسيطر على القصيدة ، وهذه الحالة النفسية السارية في ثنايا القصيدة يسميها النقاد بالموسيقا الخفية ، ولابد للشاعر أن يتقن اختيار الألفاظ لأن الشاعر " إذا أتقن اختيار الألفاظ كان لها وقعاً موسيقياً مؤثراً حيث إن الألفاظ حين يحسن اختيارها يكون لها أثر موسيقي خاص يوحي إلى السمع بتأثيرات مستقلة تمام الاستقلال عن تأثيرات المعاني وعن مجرد كون اللفظ رقيقاً وغير رقيق [١] .

وهنا برزت أهمية الموسيقا الداخلية في تشكيل موسيقا أقدر على الاتصال بالأحاسيس الداخلية والانفعالات النفسية ، فاتجه الشعراء من ثم إلى خلق حالات من الإيحاء عن طريق موسيقى الألفاظ وإلى الإلحاح على استخدام الكلمة كدلالة وكصوت انفعالي [٢] .

والموسيقا الخفية تختلف باختلاف الغرض : " والمرء يتوقع في موسيقا الشعر الغزلي شيئاً غير الذي يتوقعه في الرثاء أو في شكوى الزمان ، أو الحماسة لكن الشاعر مقيد بألفاظ اللغة ، وليس في مقدوره اختراع ألفاظ تنسجم كل الانسجام ، مع معانيه ولكنه يتخير ــ عادة ــ من قاموس اللغة أصلح الألفاظ لمعانيه ، فيوفق في اختياره أحياناً ، ويفتقد ما يطلبه أحياناً أخرى ، ويحاول الشاعر أن تكون موسيقا ألفاظه حين يطرق المعنى العفيف غيرها في المعاني الهادئة الرقيقة [٣] .

فانسجام الموسيقا ينشأ من ملاءمة الموسيقا للتجربة الشعرية عند

---

(١) د . طه حسين وآخرون ، التوجه الأدبي ، ص ١٣٨ .

(٢) د / السعيد الورقي ، لغة الشعر العربي الحديث ، اتجاهاتها الفنية وطاقاتها الإبداعية ، ص ٢٧٦ .

(٣) د . العربي حسن درويش ، زكي مبارك شاعراً ، الهيئة العامة للكتاب ، ط ١٩٨٦ م ، ص ٢٥٣ .

الشاعر ، وبذلك يكون قادراً على خلق الإيقاع عن طريق الألفاظ والحروف والمقاطع والتناغم الموسيقي ٠

ومن هنا نجد في شعر هاشم الرفاعي ألفاظاً وصوراً صوتية كثيرة تدل دلالة مباشرة على طبيعة رؤيته الموسيقية ، ومدى ملاءمة موسيقاه لمعانيه، وكثيراً ، ما نجد الألحان والأنغام والغناء والطرب ، مثل قوله [١] :

وجسم كطيف النور ينضح فتنـــــة
مشت فيه نيران الصبا فتلهبـــا

وعليه من الوشى الرقيق غـــــلالة
أبانت لنا السحر الخفي المحجبـا

وإن أنس لا أنساك ليلة جئتنـــــــا
يزينك بردان الملاحة والصبـــا

* * *

وقيل ذو الناي المخضب نابـــــــه
فاسمعنا لحناً مشجبـاً وأطربـــا

هنالك أرسلت اليدين فكانتـــــــا
على فرعك المنشور تاجاً مذهبـا

وطافت بك الأنغام ســكرى تــأودت
فهزت لنا ردفاً ومشهداً مدربـــــا

وكشف عن ساق وكسرت حاجبـــا
وثنيت أعطافاً ورقصت منكبـــــا

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٩ ٠

هنا نلمح النغمة العالية والجو المرح الذي يلائم التجربة الشعرية الموسيقية ، وذلك في وصف الراقصة التي وقع في غرامها الشاعر ومثل هذا الجو لا تلائمه سوى الحركة والسرعة والخفة والنبرات العالية والنغم الراقص الذي يبث النشوة ويوقظ الأحاسيس ، والألفاظ الموحية بذلك : " الصبا ــ السحر ــ الملاحة ــ الناي ــ شجياً ــ أطرب ــ تاجاً ــ الأنغام ــ ردفاً ــ نهداً ــ حاجباً ــ أعطافاً ــ أرقصت " ٠

وفي تطور موسيقي مواز للتجربة ، ينتقل الشاعر من النبرة العالية إلى النبرة الهادئة لتناسب تجربته الشعرية ، ولنأخذ نموذجاً لذلك قوله في قصيدته " لوعة وشجن " [١] :

لا تهجريه بحـــق مــن أولاك ∴ عرش الجمـــال ، فإنه يهواك
وأراه قد ملك الغــرام زمامـــه ∴ ما عاد يرغب في الحياة سواك
أفلا رحمت من الهــوى وسعيره ∴ من بات من فرط الصبابة باكي
صب أصاب فؤاده سهــم الهوى ∴ فهوى وجف الغصن من مضناك
ذاق الهوان ، وما برحــت خياله ∴ وبكى الدمــوع دماً ولن ينساك
عرف السبيل إلى البكاء ولم يكن ∴ يدري الســبيل إلى البكا لولاك
برحتــه وجــداً، فبــات مسهداً ∴ يشكو الوجيعــة للذي أنشــاك
ويبوح بالســـر الدفــين لأنجم ∴ باتــت لكربتـــه بجفــن باك
يا درة السحر الحـــلال وتاجه ∴ رفقاً كفاك ما جفــوت كفــاك
مــاذا جنى حـــتى أراك تركته ∴ ظمآن في دنيــا الهوى للقاك
طول القطيعة ليس في شرع الهوى ∴ يا من هجرت وطال حبــل نواك

ففي الأبيات السابقة نرى جو الكآبة والحزن والألم حيث صور الشاعر قصيدته بتجسيد حبه لمعشوقته الذي أضناه حبها وحطم قلبه

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٤ ٠

فأصبح كالمريض الذي اشتد به الداء فأشرف على الموت ٠

لأن الحب هو الذي يفري الكبد ويمزق الجوارح ويضني الفؤاد ، ويجعل الإنسان ينام على فراش من شوك وينصهر في بوتقة الأسى فيأوى إلى صومعة الكمد والحرمان لعله ينسى ولكن لن ينساها ٠

فيتألم ويتأوه لفراق الذي أصاب روحه بجرح لا يندمل فجاءت النبرة الموسيقية هادئة حزينة حيث يبث الشاعر آلامه وآهاته بصوت خافت يعلو قليلاً حيث يجد نفسه فريداً هجرته المحبوبة لتعود الموسيقا إلى النغم العادي مرة أخرى عندما يعاتب المعشوقة فيستخدم الألفاظ الموحية بالحزن والألم والشكوى " سعيره ــ باكي ــ أصاب فؤاده ــ بكى الدموع ــ يشكو الوجيعة ــ القطيعة ــ هجرت ــ نواك الدموع ــ البكاء " وقد ترجمت عن موقف الشاعر الحزين القلق من فراق المحبوب الموشي بالنغم الحزين النابع من الموسيقى الهادئة التي تربط عواطف الشاعر وآلامه وشوقه بصوت خافت ٠

وتتراءى شاعرية هاشم الرفاعي في كل مقطوعاته وذلك في التصوير البارع لفتاته باستخدام المفردات ، والكلمات الموحية الملائمة لتجربته الشعرية ٠

ومن القصائد ذات النغم الهادئ قصيدته " قلب ممزق " [١] :

لي في الهوى قلب حزين ∴ قــد بات يدميه الأنين
عصف الغرام به كمـــا ∴ عصفت رياح بالسفين
كتب الشقـــاء له وكــم ∴ سعدت قلوب العاشقين
قــد فاض وجـــداً بينما ∴ قلــب الأحبــة لا يلين
لا يشتكي ألــم الهـــوى ∴ قلبي بشكوته ضنــين

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٦ ٠

وقصيدته [١] :

يا إله الحـــب رفقاً ∴ قد وهى خيطي ورقا
وسئمت السهد ليلاً ∴ إنني بالســـهد أشقى
فسلام من جريـــح ∴ قد قضى الأيام عشقا

* * *

يا إله الحـــب رفقاً ∴ هدني سكب الدمـــوع
وسئمت السهد ليلاً ∴ والجوى بين الضلوع
فسلام مـــن جريح ∴ لم يذق طعم الهجـــوع

* * *

يا إله الحـــب رفقاً ∴ مت هجـــراناً وصدا
وسئمت السهد ليلاً ∴ والبكا حباً ووجـــدا
فسلام من جريـــح ∴ عاهد الأحزان عهداً

وبها كلمات تناسب مع المناخ النفسي للشاعر مثل : " حزن ــ يدميه ــ أنين ــ عصف ــ الشفاء ــ يشكي ــ للسهد ــ جريح ــ الدموع ــ جريح ــ الهجوع " ٠

وقد تتولد الموسيقا الداخلية أيضاً من عناية الشاعر البارزة بجرس الألفاظ وإيقاعاتها باستعماله لضروب البديع من الجناس الناقص أو يقسم البيت بحيث نشعر بالانسجام والإيقاع بين معاني الألفاظ وجرسها مثال ذلك عند شاعرنا [٢] :

وسئمت السهد ليلاً ∴ إنني بالسهد أشقى

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٢ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٣ ٠

وقوله [١] :

عصف الغرام به كما ∴ عصفت رياح بالسفين

وقوله [٢] :

ليالينا عند الخميلة عودي ∴ فقد أذبل الهجران ناضر عودي

فاستخدم الشاعر الجناس " السهد والسهد" ، و " عصف وعصفت " و " عودي و عودي " ، لأن الجناس إحدى وسائل الشاعر في إحداث الحركة التناغمية في شعره ، ولذا أحدث الجناس ترنمات موسيقية جميلة٠

وأيضاً استخدم هاشم الرفاعي التقسيم الذي يعطي الانسجام والإيقاع بين معاني الألفاظ وجرسها وذلك مثل [٣] :

فشربنا وطربنا ∴ وسخرنا من سوانا

لا نبالي بعذول ∴ أو رميت قد رآنـــا

وقوله [٤] :

في غرامي كم أعاني

إن سهدي قد براني

لم ينل غير الهوان

ففي هذه الأبيات أتى هاشم الرفاعي بكلمات يميزها هذا النغم الراقص ، وهذه ظاهرة من خصائص شعره وموسيقاه ٠

حيث الاتفاق بين :

" فشربنا " و " طربنا " و " سخرنا " ٠

---

(١) الديوان ، ص ٢٧٦ ٠

(٢) الديوان ، ص ٢٧٩ ٠

(٣) الديوان ، ص ٢٧٢ ٠

(٤) الديوان ، ص ٢٧٢ ٠

وفي غرامي وكم أعاني ، إن سهري وقد براني ، وقد حقق هذا التوازن إيقاعاً أخاذاً رائعاً تتمتع به الأذن ٠

وهكذا نظم هاشم الرفاعي الشعر في أشكاله وقوافيه المختلفة ، فهناك طائفة من القصائد سار فيها على الطريقة التقليدية التي تلتزم وحدة الوزن والقافية في القصيدة ، وهناك طائفة أخرى تنوعت فيها القافية ٠

وبالتالي فإن من السمات الفارقة لشعر هاشم الرفاعي عن غيره خياله المحلق ، تصويره الرائع ، ولغته الشاعرية ، وتمكنه من هذه اللغة ، ووقوفه على أسرارها ، وحسن استخدام المفردات والكلمات الموحية الملائمة ، وصدقه الشعوري في التعبير عما يضطرم في جوانحه ٠

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

وبعـــــد ،

فإن هذه الدراسة وقد تناولت في تفاصيلها شعر الغزل عند هاشم الرفاعي عرضاً وتحليلاً قد أظهرت أموراً منها :

١ ــ رسم صورة لشعر الغزل عند هاشم الرفاعي الذي لم ينل دراسة فاحصة من الباحثين توضحه تماماً ٠

٢ ــ أظهرت حبه للتراث ، واعتماده عليه كثيراً كرافد من روافد شعره٠

٣ ــ أظهرت أن الشعر الغزلي الذي نظمه هاشم الرفاعي يميل إلى الشكوى والحزن والألم ، وتلك سمة طاغية على جميع الأغراض الشعرية عنده ٠

٤ ــ أظهرت الدراسة أن لشعر هاشم الرفاعي في الغزل طابعاً عاماً يسيطر على ألفاظه وهو السهولة والوضوح ، أما الألفاظ المهجورة فلا يكاد يتعامل معها إلا نادراً ٠

٥ ــ وفيما يختص بموسيقا شعره تلحظ أنه استخدم البحور الطويلة بكثرة ، على حين استخدم القصير والمجزوء قليلاً ، ووظف الموسيقى التي تناسب التجربة والموضوع ٠

ومن حيث القافية استخدم القافية ذات الروي الموحد ٠

أما الإيقاع الداخلي : فقد أظهرت الدراسة طبيعتها النغمية ، حيث ربط موسيقاه بتجربة الإنسان مما أضفى على شعره إيقاعات متناسقة مقبولة ٠

٦ ــ أما الصورة الشعرية عنده فقد أظهرت الدراسة أنه مهما توغل في التجديد ظل شعره مرتبطاً على نحو ما ببعض المظاهر الفنية في تراث الشعر القديم حيث استمد أغلب صوره من القرآن الكريم ٠

وأخـــــيراً :

أرجو من الله أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة

المصادر والمراجع

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثالث الهجري ليوسف حسين بكار ، دار الأندلس ٠

(٢) أدب الرحالة ، د / محمود دياب ، بدون ٠

(٣) الأدب وفنونه لمحمد مندور ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦١ م ٠

(٤) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر لزايد علي العشري ، دار الفكر العربي ، سنة ١٩٩٧ م ٠

(٥) الأسلوبية علم وتاريخ ، د / سليمان العطار ، سنة ١٩٨١ م ٠

(٦) أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٦٤ م ٠

(٧) التكرار في الشعر الجاهلي ، دراسة أسلوبية رابعة ، بدون ٠

(٨) التوجه الأدبي ، لطه حسين وآخرين بدون ٠

(٩) دراسات في الشعر العربي المعاصر ، د / شوقي ضيف ، دار المعارف ٠

(١٠) دراسات في فن الشعر ، د / محمود دياب ، بدون ٠

(١١) ديوان بشار بن برد ، تحقيق مهدي محمود ناصر الدين، دار الكتب ، بيروت ، سنة ١٩٩٣ م ٠

(١٢) ديوان الشوقيات ٠

(١٣) ديوان محمد الأبنودي ، د / أحمد عبد المجيد خليفة ، ٢٠٠١ م ٠

(١٤) ديوان هاشم الرفاعي ، تحقيق محمد حسن بريغش ، مكتبة المنار ٠

(١٥) زكي مبارك شاعراً للعربي حسن درويش ، الهيئة العامة للكتاب ،

سنة ١٩٨٦ م ٠

(١٦) شعراء الدعوة الإسلامية لأحمد عبد اللطيف الجدع وحسن أدهم جرار، بدون ٠

(١٧) الشعر بين الجمود والتطور لعوض الوكيل ، بدون ٠

(١٨) الشعر العربي المعاصر ظواهره وقضاياه الفنية لإسماعيل عز الدين ، دار الفكر العربي ، سنة ١٩٧٨ ٠

(١٩) الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢ م ٠

(٢٠) الظاهرة الأدبية في شعر الخوارج ، د / عبد اللاه محمود حسن ، مطبعة الأمانة ، سنة ١٩٨٨ م ٠

(٢١) عيار الشعر ، تحقيق طه الحاجري ، ومحمد زغلول سلام ، سنة ١٩٥٦م ٠

(٢٢) قراءات أسلوبية في الشعر العربي الحديث لعبد المطلب محمد ، الهيئة العامة للكتاب ٠

(٢٣) قراءة جديدة في قضية قديمة لحسين محمد علي سنة ١٩٩٢ م ٠

(٢٤) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، د / محمد عبد المطلب ، لونجمان ، سنة ١٩٩٥ م ٠

(٢٥) القيان والغناء ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٩ م ٠

(٢٦) لسانيات الاختلاف لمحمد فكري الجزار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٥ م ٠

(٢٧) لغة الشعر العربي الحديث لسعيد الورقي ، بدون ٠

(٢٨) اللغة والدلالة في الشعر ، لعلي عزت ، الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٦ م ٠

(٢٩) محرم شاعر العروبة والإسلام ، لمحمد إبراهيم الجيوشي ، دار العروبة ، سنة ١٩٦١ م ٠

(٣٠) معجم البابطين لشعراء العربية في القرن التاسع عشر ٠

(٣١) مناهج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه ، تونس ، سنة ١٩٦٦ م ٠

(٣٢) موسيقا الشعر العربي لإبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٧٨ م ٠

(٣٣) موسيقا الشعر العربي لشكري عياد ، دار المعرفة ، سنة ١٩٧٨م ٠

(٣٤) الموسيقا علم وفن ولغة ، لعبد الحميد توفيق زكي ، بدون ٠

(٣٥) النصوص الأدبية ، د / عبد اللاه محمود حسن ، بدون ٠

(٣٦) النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته لأحمد كمال زكي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٨١ م ٠

(٣٧) وصف الطبيعة لإسماعيل أحمد شحاته ، دار عمار، سنة ١٩٨٧ م ٠